سبا الثقافية

شهرية ثقافية فنية

SiBA

الكلمة الصادقة لا تحتاج إلى الزخرفة

العدد 34

سبا الثقافية

01 / 05 / 2020

بريشة التشكيلي : بشير مسلم

لنا كلمة

الذات والمجتمع

على أعتاب هذه الصفحة لربما نحاول تدوين ما يدور في فلك أفكارنا، ومجرد أن نقترب من ذاتنا قليلاً نشعر بتوتر وقلق يجوب في إرهاصات وجودنا، إنها لعبة الذات، والأنا لعبة التحرر من قيود، لربما ما زالت تحاول العبور بنا إلى جهات لم نود التواجد فيها.

هي حالة من التعب واليأس، من يأس لا واقعي للواقع المفروض عليه، إنها لحالة ضرورية في التفكير بالذات نحو ذواتنا المقمعة بزنزانة الأبدية المعروضة، التي تحاول دائماً العبور بنا نحو سماوات ليست لنا ولم توجد لأجلنا، إنها تكهنات تحاول ترميم الجهل بالعادات.

فلماذا لا نكون أبناء ذاتنا، ونحاول التحرّر من قيود العقل الجمعي وشطحات المجتمع المنغلق على نفسه؟

لماذا لا نعيد ترتيب ذاتنا بذاتنا، ونتحرر من أبدية الفكرة وخلود الرموز وقداسة الأشخاص والعادة، التي أصبحت تلاحقنا في كل مكان؟

لماذا نتعلق بأكذوبة نعرف مصيرها، وأوهام نقشوها في مخيلتنا؟

لماذا نتعلق ببقايا فكر ميت لم يأتِ سوى بالأوهام؟

إنها الحقيقة التي تتألم في أحلامنا، إنها الحقيقة التي تودي بنا إلى القلق والولوج نحو الوجود الحقيقي للفرد، ذاك القلق الذي يجعلنا نشعر بمعاناة الوجود القاطن في باطن كل فرد، هذا القلق الذي يجعلنا نكتشف ذاتنا لذاتنا، ويقترب بنا أكثر من حقيقة وجودنا وصيرورة أفكارنا والتغلغل في شعورنا تجاه ذاتنا، لذلك لا بد للعودة إلى الذات ومصارحتها وتحرير الخيال من كل قشور المجتمع المحصن بتقاليد الأسلاف والأصنام والمنمقين.

هي فقط محاولة للهروب نحو المساحات، التي ما زالت تنتظرنا منذ الأزل مساحة الخيال والفكر الحر، الذي نتوق جميعاً إليه المساحة، التي ترفض معظم الأطروحات المقدسة، التي أصبحت مقدسة في أذهاننا نحن فقط نعود إلى شيء نريد أن يعود إلينا، إنه لفكرة الأنا القابعة في سجن الأنا الأعلى، الذي رسم من قبل الإسلاف بطرق بدائية، حتى أسلافنا لم يكونوا أصحاب ذاك الفكر المحبط المفروض عليهم أيضاً، عن طريق فرق الأمن الديني والأمن القومي وفكرة الوطن المقدس والصنم المقدس والصورة المقدسة، كل الأفكار هناك كانت مقدسة، وكل شيء يرتبط بالأخلاق والتقاليد والعادات، فكل شيء كان مقدساً إلا الإنسان، فهو الوحيد الذي كان مجرد أداة للتصفيق والتعذيب بكل طرقه.

لماذا إذاً لا نعيد التفكير حتى بأفكار أسلافنا؟ لماذا اختاروا لنا هذه الأفكار؟ هل كانت لهم أم كانت مصدر تهديد ووعيد وفرض مفروض عليهم؟

إنها لغة المستبد السياسي والمستبد الاجتماعي، شعارات وطنية براقة، أغاني وطنية تمجد القائد، تماثيل بمدخل المدينة، وفي كل الساحات للقائد صور في كل مكان، حتى أننا نراه ونتغازل به عنوة ونحن نقرأ الكتب المدرسية ابتداءً من التربية الإسلامية وصولاً إلى التربية الوطنية، فهو القائد الذي يحمي الوطن ويزرع الحب والأمل في نفوس المنمقين والمنافقين.

هذه هي صورة لعبة المستبد تحاصرك بالجهل والخضوع الأعمى من كل مكان، تحاول السيطرة على العقل الجمعي والعقل الفردي والدخول على منطقة اللاوعي؛ لتبقى محمية من أفكار الخيال الحر، وأيضاً فكرة التمرد التي تصبح شبه مستحيلة للوعي، وبهذي الحالة يصبح المجتمع مجرد أداة يقوم بتنفيذ أوامر مجموعة من الأشخاص، الذين يسمون نفسهم الدولة، أو الحزب الذي يعتبر نفسه المنقذ الوحيد للمجتمع، وأي فكرة ورأي مناقض لهم يكون بمثابة خيانة عظمة.

وهكذا تترسخ مبادئ المواطن الصالح، الذي يكون مجرد أداة بيد الجماعة أو الحزب، ويكون المجتمع قد توصل إلى ذروة الكسل والجهل والجمود والتسليم للأمر الواقع، ونحن بدورنا نحاول فقد أن نمضي نحو حقيقة.

لذا فإن الإرادة الإنسانية وقوتها تنفجر في أي لحظة، مجرد عودة الذات إلى طرح أفكارها الحقيقية عن نفسها، بهذا الحالة تسعى الذات أن تنشط جميع قواها من الذاكرة والوعي واللاوعي والشعور؛ لتكون إرادة تحطم صورة المقدس في العقل وتحرره من الأصنام المفروضة في اللاوعي، وهنا يأتي دور العادة التي تحاول أن تقمع كل تمرد ضد العالم الخارجي الذي أصبح مصدر هدوء وراحة، لأن هذه التغيير في الذات سيسبب للعادة بحالة من القلق وعدو الارتياح، ولكن الذات ستحاول عن طريق القلق والمعاناة برسم اتجاه تطوري آخر، قد يسبب الألم للذات، ولكنه يودي إلى حالة الطمأنينة.

كالمريض الذي يعاني من أثر الأدوية أثناء العلاج من مرض ما، وهذا الألم دليل على تحسن الحالة والشفاء، ولكن في النهاية لا بد أن نسال ذواتنا: هل تحررنا من سلطة المقدس والتقديس؟ هل ما زلنا مرضى، ولا نقبل الآخر وننكر وجوده؟

هيئة التحرير

تقرؤون في هذا العدد:

حوار فاتن حمودي مع الروائي إلياس خوري

ماه شرف خان «مستورة الأردلانية» 1805-1848
نارين عمر

فيلم المنصة : أزمة البقاء من منظور طبقي
سربند حبيب

لوحة الراعي
شمس عنتر

عدنا من الآخرين
فؤاد ناجيمي

المواد المنشورة في الجريدة تعبر عن أراء كاتبيها
ولا تعبر بضرورة عن رأي الجريدة

لمراسلتنا أو إرسال موادكم:
sibakenu@hotmail.com

هل فشلت الثورات أمام بربرية الاستبداد؟

إلياس خوري: فشل الربيع العربي هو إعلان عن هزيمة قرن عربي كامل، بدأ مع عصر النهضة، ولا يمكن وصفه إلا انتصار للبربرية

حاورته: فاتن حمودي

الكاتب والروائي الياس خوري المثقف المنتمي لقضايا العصر الذي قال "إنه عالم ليس لنا" ، حول منعطف الدم الذي يجتازه المشرق العربي ، برزت مواقف الياس خوري من خلال حركات التحرر العربية والعالمية و شارك في صياغة بيان ربيع دمشق ، وعبّر بكل ما يكتب عن متتابعات الدم والمجزرة و تآمر القوى العالمية على ثورة حوّلت المدن السورية إلى أعراس...فحوّلها النظام والعرابون إلى مسرح دم.. ما دفع الكثيرين اليوم للقول ماذا تبقّى لنا ؟

فإذا كان لكل مدينة كاتب ، يرصد ذاكرتها ، ويؤرخ حكايات أحداثها و ناسها ، فإن الياس خوري هو كاتب بيروت.ودمشق أيضا ...هو كاتب القدس يدرك أن هذا العالم وصل بنا للحضيض فيحاول أن يقول كل شيء ، وقد اشتغل على مفردات الحرب الحب الطائفية اللجوء السجن ...في رواياته مجمع الاسرار-رحلة غاندي الصغير ،الجبل الصغير-الوجوه البيضاء--اولاد الجيتو —اسمي آدم- ينطلق بكل ما يكتبه في انحيازه للإنسان ، وهو يعتبر "أننا نعيش أكبر ماساة في تاريخ العرب المعاصر ، وهي ماساة سوريا

فالسوري يعيش اليوم داخل مجموعة من الحكايات المعقدة والمتشابكة داخل بعضها ،الأعتقال المجازر ، تدخل مال النفط ، داعش النصرة الإرهاب ، النخب والمعارضة ، يؤكد الياس خوري بأنّ فشل هذا الربيع ، هو إعلان هزيمة قرن عربي كامل ، بدأ مع عصر النهضة ، ولا يمكن وصفه إلا انه انتصار للبربرية ، فمع بداية الربيع العربي سأل الجميع هل نحن أمام بداية جديدة ؟

***تساؤلك عن الأول الصرخة التي أطلقها يونس بطل روايتك "باب الشمس"، من الأوّل، هل ثمّة أوّل بعد كلّ هذه الحروب ؟**

نحن كنّا نحاول أن نبدأ من الأول بعد كلّ هزيمة ، وكارثة ، عام 1948 هزمنا بلا حرب ، عام 1967 هزمنا بلا حرب ، فقط هزمنا ، أيلول الأسود كانت حرب أهلية مُفجرة وهجوم أستباقي قام به النظام الأردني.

أما الحرب الأهلية في لبنان ، فكانت مكانا لاختبار صعوبة بلورة مشروع وطني ديمقراطي علماني ، هذه الصعوبة في لبنان لم تصطدم بالأصولية لأنها لم تكن آنذاك ، بل اصطدمنا بالنظام السوري ، اصطدمنا بإصرار عنيف وعجيب على تصفية المقاومة الفلسطينية ، والحركة الوطنية اللبنانية ، ربما كان الربيع العربي ، وميادين التحرير التي انفجرت منها الثورات (تونس-ليبيا- مصر-سوريا اليمن-البحرين) ربما كانت المؤشر الأوّل للوعي بضرورة النهوض من هذه الكوارث ، ما أقوله من هذه المنصة رؤوس أقلام ، فإذا أردنا الآن أن نحلل المأساة التي تدورااليوم في سوريا ، نفاجأ كم هذا التاريخ قاسٍ ولئيم.

وأشار إلى أنه بعد هزيمة 1967 حاول الرئيس المصري جمال عبد الناصر مع الإعلامي محمد حسنين هيكل ، اختراع عبارة النكسة لتلافي موضوع الهزيمة ، ولم يجد النظام المصري سوى طريقة لدفع ثمن الهزيمة بالإقالة وعزل عبد الحكيم عامر قائد الجيش المصري ، ثم أنتحاره أو إعدامه.

هزيمة 1967 سوريا:

أضاف ، أما في الوضع السوري فالمفارقة الكبرى كانت ، أن وزير الدفاع السوري الفريق حافظ الأسد قائد جيش الهزيمة ، بعد أن سلّم الجولان للعدو الصهيوني ، عمل انقلابا وصار رئيسا للجمهورية العربية السورية.

من هنا فإن عام 2011 ، عام الثورات العربية ، كان عام استيقاظ الضمير العربي ، حيث أصبح لدينا أمل للمرة الأولى أننا سنخرج من الدوامة الأنقلابية المدمرة ، ومن أنظمة أحترفت الأستبداد والكذب وأحترفت القضية الفلسطينية لقمع الشعوب ، وأوّلها الفلسطينين.

انتصر اللا أحد:

***الناس يتحدثون اليوم بأن الأسد انتصر، في هذا المشرق الذي بات اليوم ملعبا للقوى الإقليمية، ما رأيك، وما هو دور النخب في ذلك ؟**

بعد سنوات من الثورة السورية والحرب ، لابد من التفكير بنقد حقيقي ، فالنخب لم تكن بحجم المسؤولية ، يمكن أن تجد كل مجموعة من النخب تبريرات للفشل ، مثل كنا في السجون ، هذا لايلغي بأن النخب لم تكن بحجم المسؤولية ، وكان الشعار الذي أطلقه النظام السوري الأسد أو لا أحد ، كان شعارا للتطبيق ، وانتهينا اليوم أنه أنتصر اللاأحد.هذا المشرق الذي بات اليوم ملعبا للقوى الإقليمية ، ملعب أستغلته كل الأنظمة العربية المحيطة المعادية للربيع العربي ، سواء الأنظمة الأستبدادية ، أوبعض أنظمة الغاز والكاز ، وبالتالي نحن نواجه اليوم سؤالا كبيرا كيف نبدأ من الأول ؟ نحن بحاجة لأحد يضرب رجليه على الأرض ويقول سنبدأ.

***يظل سؤالنا عن النخب بحاجة إلى إجابة شافية ؟**

في الحقيقة إذا كان ثمّة دور للمثقف ، فأوّل دور هو أن يتواضع ، ويتعلّم من الناس ، رغم كلّ شيء الواحد منا لا يشعر إلا بالخجل ، ولابد أن نعيد النظر بلغتنا العربية ، نتعلّم من الذي يصنع اللغة(الناس) ، الناس الذين صمدوا ، الذين هاجروا ، الذين أندفنوا بالبحر المتوسط ، نتعلّم من الناس الذين يعيشون في ظروف وحشية ، في مخيمات اللجوء في لبنان والأردن وتركيا ، من الناس الذين يعيشون في سوريا تحت ظروف قاهرة ، من الناس الذين تحملوا داعش والنصرة ، بعد تحملها للنظام الأستبدادي ، فأول شيء نتعلمه من الناس لغة البقاء

لغة الصمود ، ولغة الالتزام الأخلاقي العميق.

النخب الديمقراطية السورية سقطت كزميلتها اللبنانية في امتحان الحرب الأهلية ، أمام تكالب العالم المثقفون السوريون ينقسمون دائما ، لأنهم فئات ، وأخطر شيء أن يكون المثقف حاجب للسلطان بحجج مختلفة ، وهذا للأسف حصل مع بعض المثقفين.

أما الجسم المركزي للثقافة السورية ، فقد أثبت رغم هشاشته وضعفه وتعرضه لأبشع أنواع القمع على يد النظام المستبد خلال 50 سنة من عمره ، أثبت هذا القطاع أنه يمثل الضمير السوري ، هناك مصطفى خليفة ، خالد خليفة سمر يزبك ، فرج بيرقدار ، إلى جانب الكتّاب والسينمائيين والمسرحين والفنانين ، الذين قدّموا نتاجات كبرى وهي جزء من بلورة لغة سورية جديدة.

ما يحصل اليوم في سوريا رأيناه في لبنان أثناء الحرب الأهلية ، وبعدها ، فقبل الحرب لم يكن هناك رواية لبنانية ، كان يوجد روائيون لبنانيون ، فالرواية اللبنانية لم تتحوّل إلى متن في الثقافة العربية إلا في الحرب حين تحطّمت التابوهات ، اليوم نشهد في سوريا ولادة رواية ، أنظر لها بإحترام وأتعلم منها.

*** دأبك على حضور محاضرات الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، إلى أي درجة اضاء لك الطريق لرؤية المعتقل، وتطور فكرة السجن، السجن كبديل للمقصلة، سجن نظام الأسد وجنون العنف ؟**

ميشيل فوكو كاتب ساحر عظيم ، كانت تلك المرحلة من اجمل مشاهد الثقافة في العالم ، لم يكن وقتها يوجد فيديو ولا أتصالات ، كانت تُفتح أمامنا ثلاث قاعات كي تتسع للحضور ، وكنت أجهّز نفسي من الساعة الواحدة ظهرا أنتظر حتى الخامسة لنرى ونسمع.

***معروف أن أدب السجون أدب جديد على المكتبة العربية، دخل إليها في النصف الثاني من القرن "20"، بسبب سيادة الأنظمة الشمولية، لاسيما في العراق وسوريا،ومصر، حدّثنا عن عن أهمية الكتابات التي رصدت فكرة الأعتقال لاسيما في الرواية، والفكر أيضا ؟**

السجون العربية بدأت في الستينات ، ومع رواية صنع الله ابراهيم "تلك الرائحة" ،شكلت الكتابة شهادة عن السجن ، وكانت فاتحة لأسلوب جديد في الأدب ، هذا الجيل دخل المعتقل أيام جمال عبد الناصر ، وشكّل تجربة رؤيا جديدة للكتابة واللغة السردية ، بعد ذلك جاءت كتابات عبدالرحمن منيف ، شرق المتوسط ، ومدن الملح ، والعراقي فاضل العزاوي القلعة الخامسة وروايات أخرى تحكي عن تجربة السجن.

أدب السجن يربط الحرية بالكتابة ، بطل رواية شرق المتوسط كان يربط خروجه من السجن ليكتب ، كذلك بطل رواية صنع الله ابراهيم كان كل الوقت يحاول أن يكتب رواية ولا يقدر ، بمعنى ربط الكتابة بالحرية ، هذه الميزة الأساسية لأدب السجون ، بعد ذلك جاءت التجربة السورية التي عبّرت عن أدب السجن ، مصطفى خليفة ، ياسين الحاج صالح ، فرج بيرقدار ، (القوقعة) ورقصة القبور ، للروائي السوري مصطفى خليفة — ووابدعت روايات حكت عن الوجع السوري ، رواية فواز حداد (السوريون الأعداء) إلى جانب روايات أخرى " لاسكاكين في مطابخ هذه المدينة لخالد خليفة ،روايات سليم بركات ، واسماء كثيرة اخرى.

يتابع:الآن لا نعرف مصير عشرات الآلاف من المعتقلين المغيبين قسرا ، لانعرف أي فكرة عن مصائرهم ، ولا ننسى الصور التي خرجت من السجن عن تجويع وتعذيب السوريين المعتقلين سايزر.

للأسف لم يعد هناك أدب سجون في العالم ، فقط في بلادنا يزدهرهذا النوع من الأدب ، ومعروف أن أدب السجون نشأ في أوربا الشرقية ، وأمريكا الجنوبية ، ولكنه عندنا هو المكان الأخير ، و لأن السجون تنمو وتزدهر بطريقة وحشية ،فمن الطبيعي أن يزدهروينمو أدب السجون في هذا المشرق.

السجن تاريخيا:

***وماذا تقول عن السجن تاريخيا كقصة معقدة جدا ؟**

شكّل السجن جزءا من بنية الرقابة على المجتمع كما قال فوكو ، من أجل هذا درس السجون ،كمركز مراقبة وعقاب وانتقام ، في العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر كان السجن تعذيب علني حتى الموت مثل داعش اليوم ، من أجل هذا درس فوكو هندسة السجون ، ومع دمقرطة الحياة السياسية والإجتماعية أصبح السجن مكانا للتأهيل ، ورغم أن هذا الموضوع لايزال نظريا ،فواقع السجون الأمريكية مريع "غوانتانمو" ، قرأت مرة دراسة تشير إلى أنها من أسوأ السجون في العالم.

*** واقع الثورة السورية هناك الكثير من الأمثلة التي تحوّلت إلى أيقونات مقتل وتشويه جسد الطفل حمزة الخطيب..غياث مطر ابن داريا وليس آخرهم العالم باسل الصفدي.. عبقري الخوارزميات الذي حوّله الأسد إلى رقم .مئات الآلاف الذين قضوا أو الذين مصائرهم مجهولة في ثورة يتيمة، كيف ترى السجن السوري في مراياك الواقعية والفلسفية ؟**

الجديد تحويل السجن في الممارسة السورية إلى معسكرات الموت النازية ، كل أدب السجون يشير إلى أن الوطن بكامله أصبح سجنا. السجن ، السجن كبديل للمقصلة ، سجن نظام الأسد وجنون العنف

لم يستطع أحد أن يصف متعة المستبدين بوحشيتهم ، بقي الأدب عاجزا عن وصف متعة القاتل وهو يقتل فيزداد عطشا إلى الدم ، لا كامو في «كاليغولا» أو ماركيز في «خريف البطريرك» أو استورياس في «السيد الرئيس» أو غيرهم استطاعوا التقاط متعة التوحش التي ترتسم على قناع الموت الذي يلبسه.

***هل هزمت الثورة السورية، كيف نزيح جدار الإحباط الذي يخيم على الراهن ؟**

إن مايجري في سوريا لم ينتهِ ، الحرب دائرة وممكن أن تستمر سنوات ، وسواء انتهت الحرب أم لم تنتهي ، فإن الخاسر هو النظام ، النظام هزم ، المعارضة هزمت ، الأئتلاف المجلس الوطني ، نحن في مكان متفجّر.

ليس المطلوب التعايش ، بل مطلوب أن نخترع طرق لنعيش بكرامة ، وأن لانسمح لقوى الإستبداد وقوى التوحش بأن تستولي بالكامل على اللغة ، وهذه مهمة الأدب اليوم.

هل ثمة محاولات قمت بها مع مجموعة مفكرين ؟

أتذكر أن هناك الكثير من المحاولات في أوائل الثمانينات ، محاولات عديدة اشتغلت بها أنا وعبد الرحمن منيف ، وسعدالله ونوس ، شارك فيها فيصل دراج وطورها إدوار سعيد ، وصادق جلال العظم عملنا لجنة مصغرة ، تحديد المثقف الذي بدأه سارتر ، و أكمله إدوار سعيد ، المثقف هو الرجل الذي يتعاطى قضايا عامة مرجعه الأساسي القيم الأخلاقية وانتماؤه للناس الممنوعين من الكلام ، هذا المثقف مطلوب منه اليوم الشغل على بلورة وعي ديمقراطي وهذا ما ينقصنا في الثقافة العربية المعاصرة ، قمنا بمحاولات اشتغلنا فيها أنا وعبدالرحمن منيف ، سعدالله ونوس فيصل دراج إدوار سعيد حتى عملنا لجنة مصغرة انضم إلينا عبد الكريم مروة ، وعملنا مونيفيستو للديمقراطية ، كان هذا الوعي قبل الثورات ، لكنه لم يتطور ولم يتبلور بحيث يشكل نقطة ضوء تلعب دور أساسي في الثورة ، لأن الموت كان ينتظر البعض منا

مات إدوار سعيد وسعد الله ونوس ، وهذا لايعني بأن الثورة كانت غلط ، لايوجد ثورة غلط ، الثورة هي انفجار اجتماعي وهذا الإنفجار حصل ، فكيف نواكبه ؟ كم خسرنا كم ربحنا ، كم حاولنا ، وكم هو ضروري متابعة المحاولة

قلت مرة بأن مأزق الثورة السورية ، قالها يوما الساروت ، حين خرج من حمص طالبا المدد من جبهة النصرة ، في الوقت الذي تخلى عنه الجميع.

كيف نستطيع الخروج من هذا الليل، برأيك هل تنزاح لغة الثقافة أمام لغة همجية الحروب ؟

نعيد التذكير هنا بعبارة غبريال غارثيا ماركيز: "إن لحظة من الظلام لا تعني أن الناس قد اصيبوا بالعمى". وحبذا لو تستذكر مقولة الفيلسوف نيتشه: "وأنت تقاتل الوحش ، إحذر أن تصبح وحشا"*المثقف المعارض لم يستطع أن يواجه الثورة المضادة ، هل بسبب أن الإستبداد موروث تاريخي ، أم أن هناك أسباب أخرى أثّرت على المثقف ؟

الثورة بقيت ثمانية أشهر سلمية ، غياث مطر كان يقدّم الورد والماء للجيش ، أعتقله النظام وأعاده بعد أيام قتيلا ، ولم يكترث العالم ، توحش مطلق كان مع تحالف القوى المجاورة العربية النفطية وتركيا ، وأيران كلهم أشتغلوا لتدمير فكرة الديمقراطية.

المعارضة السورية فيها مثقفين ، ولكن لم يكن هناك قدرة ، ولا وعي للصعوبات التي تنتظرنا ، لم يكن هناك استراتيجية ملائمة لمواجهة هذه الصعوبات ، هذا الخطأ له علاقة بالأستبداد ، الجانب الديمقراطي دمّر كليا.

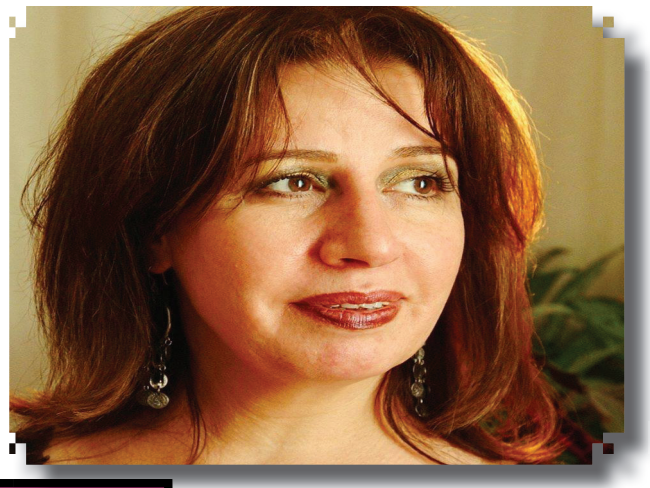

فيلم المنصة:
أزمة البقاء من منظور طبقي

سربند حبيب

نتساءل أحياناً هل التطور والتقدم الذي حققته البشرية خلال مراحل حياته جرده من روحه الإنسانية وجعل من الإنسان مشكلة على الإنسان نفسه؟
فعند ممارستنا أي عمل مجرد من إنسانيتنا كالعنف والقتل والتنكيل والتعذيب... فإننا بذلك ننكص إلى الحيوانية، أي نتجرد من خصائصنا الإنسانية، ونبقى مجرد حيوان عاقل، فالعقل وحده لا يتجه نحو الخير والحق والجمال بل هناك دائماً وحشٌ في نفس الإنسان.

في هذه الفسحة الافتراضية حيث لا زمان ولا مكان، يقدم لنا المخرج الإسباني ”غالدير غاستيلو أوروتيا“ نموذجاً حياً على جشع الإنسان وصراعه من أجل البقاء سينمائياً، مجموعة من الناس دخلوا هذا السجن غير الطبيعي في هيكله العمودي بمحض إراداتهم ليختبروا مدى تحملهم لفزعات الإنسان اللاإنسانية، نظام السجن يخلق مجتمعاً من الصم تطغى فيه النزعة الفردية، يشبه إلى حد بعيد، النظام الرأسمالي في تقسيمه الطبقي. له قوانين صارمة وقواعد حياتية غريبة، يسكن كل طابق سجينان فقط، وبينهما (حُفرة) تهبط من خلالها مائدة فاخرة للطعام من الأعلى إلى الأسفل تعدها أمهر الطباخين، وهي تكفي لجميع المساجين ولكن الطعام لا يصل إلى المستويات بعد الخمسين، وهنا يبدأ رحلة البحث عن البقاء، بقتل شريك الزنزانة وأكل لحمه، ولا يسمح للسجناء بأن يحتفظوا بشيء من الطعام إذا انتهى وقتهم؛ لأن طقس الزنزانة سيتغير بشكل فوري، إما الحرارة تحرقك أو برودة تجمدك، فقط الأكل خلال دقيقتين ثم تهبط المائدة إلى الأسفل تدريجياً، يتغير موقع السجناء شهرياً بعد تنويمهم بغازٍ ما، فلو كنتَ في المستوى السادس هذا الشهر، من الممكن أن تهبط درجتك في الشهر الذي يليه إلى المستوى المائة وسبعون، ويحق لكل سجين أن يجلب معه شيئاً واحداً فقط من العالم الخارجي داخل الحفرة طوال مدة سجنه.

بطل الفيلم ”غورينغ“ الذي دخل السجن طوعياً؛ ليحصل على دبلوم دراسي لمدة ستة أشهر ولكونه رجل مثقف وواعي، جلب معه رواية ”دونكيشوت“ الفارس الذي أراد تغيير العالم بطرق ساذجة ومن وحي خياله، تعكس رمزيتها شخصية البطل، شريك زنزانته الأول هو ذاك العجوز ”تريماغاسي“ الأناني وإزدواجي الفكر والفعل الذي خير بين المصحّ العقلي وهذا السجن.

ملامح ”هرم ماسلو“ واضحة في الفيلم، جميع المساجين

هنا يعيشون قاعدة الهرم، أي الحالة الفسيولوجية فقط الحاجة للبقاء (التنفس – الماء – الطعام – النوم...)، ويستحيل ارتقاهم في سلم الهرم لعدم إشباع احتياجاتهم الأساسية وحتى عندما يرتقون طبقياً ويمتلئون جسدياً، يبقى الجشع مسيطر ويطغى عليهم الانتقام فيبقون في القاعدة، ونلاحظ ذلك بوضوح من خلال شخصية العجوز ”تريماغاسي“ وما يقوم به من أفعال شنيعة عندما يتبول ويبصق على مَن في الأسفل ويعلم بأنه سيتلقى ذلك من الأعلى، حتى مع شريكه غورينغ عندما ينزلان إلى مستوى (١٧١) يقوم بربطه ويحضره كوليمة لعدم وصول الطعام لهم، ولكون الجزاء من جنس العمل يموت هو نفسه، ويحطم الجوع على غورينغ ليأكل لحماً بشرياً ويتشرب بعض صفات ”تريماغاسي“ ساخراً وفاقداً للأمل مقلداً طريقة كلامه، ثم يستيقظ في مستوى (٣٣) مع شريك مختلف كلياً عن الأول، الموظفة ”ايموغيري“ التي دخلت

السجن طواعية لعلها تساعد المساجين على التضامن العفوي بعد إصابتها بمرض السرطان.
هنا تظهر النظرية البنيوية لسيغموند فرويد من خلال شخصيتها التي تحاول وبشق الأنفس من وصول الطعام الى مستويات الأدنى لتكشف عن أناها الأخلاقي، في حين إن (اللهو) طاغٍ بشكل عام على السجن وفق مبدأ اللذة وغريزة البقاء، لكن جميع محاولاتها تضيع سدى، فيتدخل ”غورينغ“ بشكل غير أخلاقي ويهدد مَن هم في الأسفل ويحذرهم بالتغوّط على الطعام إذا لم يلتزموا بالأكل، ويُحضر كل مستوى طبقين من الطعام للمستويات الأخرى، فتطلب ”ايموغيري“ منه أن يحذر من هم في الأعلى أيضاً فيعتذر غورينغ: أنا لا أستطيع التغوط فوقاً فقط أستطيع التحكم على من هم أدنى مني، وهنا نلاحظ إن تطبيق العدالة في كثير من الأحيان تحتاج إلى القمع والديكتاتورية ولا تفيد الديمقراطية في التعامل. لم تتحمل ”ايموغيري“ كذب وخداع ما يسمى بالمركز العمودي للإدارة الذاتية وخاصة عندما تستيقظ في مستوى (٢٠٢) الذي كان من المفترض أن يكون 200 بحسب خبرتها كموظفة للمنظومة، فتشنق نفسها وتقدم جسدها هدية لغورينغ وتتحدث شبحها: جسدي لك كله وتخلص منه على صورة براز تعويضي، لكن ”غورينغ“ يقاوم على عدم أكلها، ويغلب (الأنا) على (اللهو) هنا فمبادئه وقيمه الأخلاقية لا يسمح له بذلك، فيأكل أوراق الرواية فالجوع يفوق جميع النظريات والأدب، وتبقى غريزة البقاء أهم من كل شيء.

تتطور شخصية ”غورينغ“ ويكتسب خبرة عملية من كل مستوى ويفعل أشياء لم يتوقع فعلها لكن الظروف التي عاشها كانت أقوى منه، عندما يستيقظ في المستوى (٦) يلتقي برجل زنجي ”باهارات“ المؤمن فاقد الأمل يريد فقط الخروج والخلاص من قذارة هذا المستنقع، فيقترح عليه ”غورينغ“ التغيير والانقلاب على الوضع الراهن، فيقنعه بإصلاح العمودي لنظام الأكل بأن يوصلا الطعام بالتساوي إلى الطبقات تحت الخمسين حتى يستطيعا إيقاف القرف ولا يأكل أصحابها لحوم بعضهم فالثورات الحقيقية تنبع من القرف الحقيقي. حين تسوء الأمور كفاية، تقتل الهررة الأسد.

في رحلتهما سيلتقيان بالرجل الحكيم وسيقوم بتوجيههما قائلا بأن السلوكيات الأساسية تأتي أولاً، والإقناع قبل الهزيمة وإدارة السجن كيان بدون ضمير، والعاملين بالطابق أي الطباخين من الممكن أن يكون لهم بعض الضمير لوقف المهزلة، ونصحهما باختيار طبق فاخر ليعود إليهم ويكون هو رسالة الاستغاثة فكان الاختيار على طبق حلوى ”الباناكوتا“، ولكنهما حين وصلا لآخر طابق (٣٣٣) وجدا فيه طفلة صغيرة تتضور جوعاً، وأخيراً يقرر ”غورينغ“ البقاء في الأسفل ليموت حتى يتطهر من الخطايا التي ارتكبها، وتصعد الطفلة المنصة وتتم إنقاذها وهي الرسالة للعالم بحق الإنسانية في العيش بكرامة، وتبقى نهاية الفيلم مفتوحة.

فيلم يعكس ما نعيشه الآن من صراع طبقي وغياب القيم الأخلاقية والاجتماعية، حيث يغلب مصلحة الفرد على الجماعة، وينطبق ذلك على قول ”هوبز“ الذي يعتبر(الإنسان ذئب لأخيه الإنسان)، هو هذا الشر القابع في هذا الكائن المعقد، هذا الشر يمكن أن يجعل الإنسان يفترس حتى أقرب الناس إليه، إذ تبقى مصلحته وأنانيته هي الدافع الأكبر الذي يحفزه لممارسة الشر، ومن أجل ذلك يمكن أن يرتكب كل الممكنات، ومن أبرز السجالات في هذا الموضوع تلك التي دارت بين توماس هوبز وجان جاك روسو حول هذه القضية، إذ وصف هوبز الإنسان بأنه ”بشع“ و ”همجي“، لا يمكنه التعايش مع بني جنسه في سلام إلا في وجود مجتمع وقواعد لكبح جماح غرائزه وشهواته، ولكن روسو عارضه على الملأ، زاعماً في المقابل أن الإنسان يظل لطيفاً ونقياً طالما كان بمنأى عن فساد النظام الطبقي الذي يفرضه المجتمع وما ينطوي عليه من ظلم وجشع.

عبقُ كوباني

أنت واضحة وغامضة! تشبهين قمح الوطن وخبزه وتبغه!

حسين محمد علي/ كوباني

تتداخل الصور لدرجة الازدحام في شغف طفولي ممتع حين أعود بالذاكرة إلى تلك السنين، هكذا هي الأزمنة الجميلة دائماً، زمن الطفولة والصبا جميل، هذا ما نتخيّله والإنسان يظلّ مشدوداً إلى البدايات، والبدايات في نظر الإنسان أجمل من اللاحقات، هكذا نحرص أن نقعد عند أمسنا بكثير من الحب والحنين.

ترى من أين أبدأ وأنا الغائص في تفاصيل الذاكرة حتى الاختناق؟! هل ستكون الكلمات قادرة على إعادة رسم ما مضى بالصورة والصوت والحركة واللون وأنا لا أملك إلا الحبر والورق الأبيض؟!

في الوضع الصحي ما أذكره أنّ أوّل طبيب اسمه «ذكار» لم يكن طبيباً بالمعنى الأكاديمي، قيل: كان ممرّضاً مع جيوش الحلفاء في الحرب الكونية الأولى، واكتسب خبرة عملية في معالجة الأمراض. عيادته كانت في بيت (محمد بديع)، مدخل الشارع إلى المركز الثقافي. أكثر الأمراض فتكاً كان السلّ«Merez» ، وأمراض العيون صيفاً والتيفوئيد والملاريا وبخاصة في منطقة الـ (دشت)، حيث المروج والماء الراكد والشجر، المكان المثالي للبعوض وغاراته في ليالي الصيف.

أمّا الطبيب الحقيقي بالمعنى العلمي فهو الدكتور) مظفّر العبّاسي) ابن دمشق، لقد أدمن العيش في كوباني وتماهى فيها، ترك دمشق وهو ابن نعمة وسليل عائلة عريقة، قدم إلى البلد عام1952 ، واتّخذ عيادته وسكنه في بيت (علي باقي (؛ ليصبح قاموساً بأمراض المنطقة ، يعرف أمراض عوائلها، طبيب فطن مجتهد صاحب النكتة الشامية الناعمة ، وإذا أُثيرت أسئلة بلهاء لا يتورّع عن طرد المريض وحتى ضربه ... وقد عمل معه مساعداً وممرضاً) حسين علّوش (، فاكتسب منه خبرة عريضة ، حتى بات في حكم الطبيب ، وكان (حسين علوش(من الجرأة والدراية لدرجة أنه كان يتصدى لعمليات خطيرة في عيادة بيته مع الدكتور (مظفر). منها عمليات بتر أقدام وأشلاء المصابين بالألغام التركية اللعينة وفخاخ الموت المتربّصة بالناس حين يغامرون بعبور الحدود. لقد كنت وأقراني شهوداً على العديد من تلك العمليات الجريئة ، كنا نسترق البصر من ثقوب باب العيادة لرجل مسكين مسحوق القدم ممزّق ينزف وقطع اللحم تتدلّى .. تقطر دماً ، وشظايا العظام متناثرة ، تعمل المشارط والمقصّات وحتّى المناشر في تلك الأشلاء، والرجل مغلوب على أمره يصرخ ويتوعّد ، ويستغيث بالربّ والأنبياء والأولياء، كلّ ذلك يجري دون تخدير!

مظفّر العبّاسي تدين له كوباني بأكملها ، لقد كان ولا يزال محارباً عنيداً للآلام والأمراض، وقد بلغ من العمر عتيا . وقبل أن أختم سيرة ومسيرة هذا الرجل الحكيم لا بد أن أصف عيادته ؛ كانت بسيطة متواضعة ككل بيوت الناس، كان يرفض مظاهر الترف والأبهة، محبّاً للحيوانات، عيادته شبه حديقة للحيوان ؛ فيها الماعز والخراف وديك الحبش والدجاج والإوز ، يستمتع بمشاهدتها وقت فراغه ، كان يربّي كلباً رشيقاً اسمه) فوكس (. قال لي مرة في دردشة ودية : إنه مصاب بمرض سرطان النظر إلى السماء ، وهو يراقب أسراب الحمام تجوب فوق المنازل بكل شغف ومتابعة .

بالتزامن مع مظفّر كان طبيب عملاق هو (إبراهام قسيس) من أرمن قنيّة ، عيادته تقابل بيتنا شمالاً بأشجار السرو العتيقة ، بيته هذا من الأبنية القليلة المبنيّة من الحجر الجيري) الكلسي(، هندسة كلسيّة مترفة، قيل لي : إنه كان مقرّاً للمستشار الفرنسي . هو خرّيج فرنسا وزوجته فرنسيّة ، وله ثلاثة أولاد بسيماء أوروبية، كنّا نلعب معهم مع بقيّة أولاد الأرمن ، يعيشون حياة مترفة من طعام وثياب وألعاب ، إبراهام الطبيب مثل مظفّر كان طويلاً أفرع دقيق الملامح أصلع قليل الاحتكاك بالوسط ؛ بسبب ضيق الوقت من زحمة المرضى ، ولربّما يعود ذلك إلى انطوائية نخبوية اكتسبها من دراسته في فرنسا ، أذكر أنه استقدم في وقت مبكّر جهاز التصوير بأشعة X أو المرايا كما كنّا نسمّيه. غادر كوباني أواخر الستينات ، وكانت عيادته في حلب مقابل كنيسة اللاتين يؤمُّها أهل البلد بعد ذلك بسنوات ؛ بسبب أخلاقه النبيلة وثقة الناس به.

هذا البيت أصبح بعد ذلك مقرّاً لإدارة حصر التبغ) الريجي(، وقبل أيام وأثناء كتابة هذا السفر والأحداث التي جرت في سوريا عام 2011 وما بعد ، ارتفع فوقه العلم الكردي بألوانه الأخضر والأحمر والأصفر ، ولاحقاً أصبح بيتاً للشعب .

في البلدة كان هناك طبيب أسنان أرمني هو (أرتين)، خريج جامعة عينتاب ، كانت عيادته تقع خلف قهوة علوش، تعلم على يده (كريكور)، وبعد أن سافر) أرتين) إلى أمريكا تابع تلميذه (كريكور) مهمة علاج الأسنان ببراعة وحرفية متقنة، صنع القوالب ومارس الخلع وتلبيس الذهب. في تلك الأيام لم تكن هناك صيدليات ، الأطباء هم من يصفون الدواء ، ويقدّمونه في عياداتهم ، وكان المريض يبقى مقيماً لدى أقاربه مع ما يعني ذلك من أعباء وعدوى ومشاهد مقزّزة ، المريض كان يذهب للطبيب يومياً لأخذ الجرعة إلى أنْ يشفى أو يأتي الله أمراً كان مفعولاً . وأول مَن فتح صيدلية صيدلانيٌّ من حلب هو) الشاذلي (. وكان ذلك في أواخر الستينات ؛ وهي صيدلية صغيرة في دكّان صغير ضمن حوش (حسين علوش) ، ثم تتالت الصيدليات . ومنها صيدلية (جميل بركات)، وكانت ملكيتها لـــ (مصطفى مجوز) صاحب صيدلية حلب في شارع القوتلي بحلب وصيدلية (لوران) وله صيدلية الوطن في حلب في حيّ السليمانية في زاوية الشارع الرئيسي.

وتكملة للملفّ الصحي للبلد كان ثمة نسوة يمارسنَ مهنة الطبّ وبخاصة طبّ العيون والكسور وعلاج أمراض الأطفال ، تارة بخلائط الأعشاب ، وحيناً بالسحر والشعوذة. ومن اللائي مارسن طبابة العيون السيدة (فهيمة والدة الحاج عيسى) ؛ وهي أرمنية بالأصل لكنها أسلمت.

و(رحيمة والدة شيخ موس (المشهور في البلد بدكان العطارة والبذور. كانت المذكورتان تعالجان العيون بعقاقير كاوية مؤلمة بألوان فاقعة كالأحمر والأزرق والبرتقالي . وبالنسبة لنا كان اصطحابنا إلى أولئك محنة وعقوبة تستدعي منا الهرب أحياناً وإطلاق رشقات من المسبّات بسبب الآلام من تلك الأدوية.

وللأمانة فإن أمراض العيون التي كانت تستشري في أواخر الصيف وبدايات الخريف قد تمّ القضاء عليها بفضل دواء البنسلين الفعّال من قبل الطبيب مظفّر ، وقد تخلّصنا من جحيم فهيمة ورحيمة وعقاقيرهما الكاوية . أما القابلات الولّادات ففي كل حارة ولاَدة) بيرك Pîrk) ، أشهرها كانت ”فاطو غزالة“ ، وكانت امرأة عطوفاً خبيرة ذات أصول أرمنية ، ولكنها أسلمت ، وعُرفت بالتقوى والورع .

كلّ هؤلاء وغيرهم عاشوا فوق هذه الأرض ، تركوا بصماتهم وتواقيعهم لنا ، ذكرهم يثير فيَّ حنيناً موجعاً ، ففي كل غيمة أمطار طفولتي ! وفي كل مساحة تراب أثار أقدامي ! وفوق كل حجر توقيعي وتواقيع الذين أدوا أدوارهم فوق هذا المسرح ورحلوا إلى غير رجعة ! فآهٍ مما عرفتُ ومما تعرّفت عليه !

وطن بين صوت الرصاص، وأنين القلم

عبدو أحمد

ذات مساء من مساءات كردستان الباردة، والغيوم تستعرض غضبها في وجه السماء، انهمرت سيول الأفكار في رأسه، بعضها تحرّضه على البقاء منطوياً على بياض الصفحات، وأخرى تحرّضه على الانتقال لساحات القتال، وأخيراً اتّخذ القرار.

ففي شتاء عام ٢٠١٥م قرّر «زانا» الالتحاق بالبيشمركة، وفي الربيع وجد نفسه في ساحات مخصّصة لتخريج رجال أقوياء، أما استراحاته فكان يمضيها بين أزهارٍ لوّنت وجه الربيع على حافة جبلٍ شامخ. مرّت شهور التدريب خالية من التفكير، فالتعب كان كفيلاً بإبعاد شبح الأفكار عن مخيّلته الفتية.

أتى الصيف بقيظه الذي يذيب الأجساد، حمل بارودته مع رفاقه إلى الجبهة، حيث حرارة المعارك أشدّ من حرارة الصيف، كان معه «متين»، الذي جمعهما التدريب، وصار من أعزّ الأصدقاء – متين هادئ مرح يضحك كثيراً ويطلق النِكات، أما زانا عبوس الوجه عصبيّ، لا يجيد المزاح، كان متين بشعره الأجعد أشقر الوجه، أما زانا أسود الشعر أسمر الوجه، حيث الصفة الوحيدة المشتركة بينهما أنهما طويلا القامة – وكان هذا كافياً كي يطلق متين مقولته: «نحن ضد العنصرية، أشقرُ وأسمرُ غامق»، يليها سيل من القهقهات يطلقها بخبث.

وبعد انقضاء ساعات السير الطويلة التي نالت منهم ومن مركبة النقل على الطرق التعِبة من الزمان والمكان، حانت لحظة الحقيقة وجهاً لوجه مع عدوٍ يلتحفه السواد، لباسهم أسود وقلوبهم أشدّ سواداً، لا يفصل بينهم سوى سواتر ترابية كانت قد هُيّأت للاحتماء حين تشتدّ المعارك وينطق الرصاص.

في سهل نينوى، حيث حطّ الجنود رحالهم وجهزوا بنادقهم، ليس للوقت في قاموس الحرب مكان، بعض اللحظات تمرّ سريعة كالبرق حين يعلو صوت الرصاص، وبعضها يصيبها الشلل حين يهبط شبح الحنين على الجنود الساهرين تحت سماء الصيف الصافية الساكنة والتي لا يقطعها سوى قهقهة جنود ساهرين على حدود الوطن.

يرمون بقهقهاتهم في وجه الليل، فلا يلقون صدى لها وكأن جدار الليل قد امتصّ الصدى، كي لا توقظ الأشباح، يقول زانا مخاطباً نفسه بصوت عالٍ:

- ماذا لو كان الوطن ضحكة طفلٍ، في الأمس سرقوا طبشوره؟
ماذا لو كان الوطن لحناً، لا يصدره سوى أناملٍ بريئة؟
ماذا لو كان الوطن ربيعاً، تسقي وروده سيول الأمطار لا الدماء؟

يردّ عليه متين:

- ما بك يا ثرثار؟ لقد أيقظت الموتى بكلامك، ألا تكفّ عن الثرثرة؟!

- آهٍ يا صاحبي!! ليتها كانت ثرثرة فحسب، إنما هي أسئلة تفرض نفسها على عاشقٍ اضطر أن يترك الكثير من أمانيه؛ ليلاحق حلماً، حلم لدى غيره جاهز مجهّز، له خريطة واسم، له بنادق تحرسه وجوازات سفرٍ تحمل اسمه، حلم في ربوعه نوادٍ للقراءة وأخرى للعهر والقمار...

(آهٍ من حلمنا...)، بالكاد نطق زانا آخر كلمةٍ، ثم غرق في غفوة طويلةٍ تشبه الموت، وكأن أنفاسه توقفت.
أما متين، فظلّ شاغلاً بقراءة كتابٍ لطالما تعوّدا على دفن الكتب في حقائبهم، لتكون ونيسة لهم في ليالي الحرب الطويلة الحارة.

مرّت ليالي الصيف القصيرة والأماكن باتت مألوفة، فعلى قمّة الجبل يختبأ (ابن العاهرة) – هذا كان اسمه – ولعله أنسب الأسماء لشخص مثله قد قدم من أقاصي المعمورة ليلوث هذه البلاد، يختبئ كالثعلب، يطلق رصاصه المليء بالحقد متى ما حلّت له فرصةً لقنص أحد الحالمين.

في تلك النقطة العسكرية اجتمع العديد من الأفراد؛ ليشكّلوا لوحةً ربما عجز أمهر الفنّانين عن رسمها، لهجات مختلفة

تشكّل لغةً جميلةً غنية بالمفردات، قامات متفاوتة، وجوه ضاحكة وبعضها عابسة، يجمعهم حلم واحد... وطنٌ واحد.

في إحدى نقاط الحراسة يحتضن الجندي بندقيته كمَن يحتضن حبيبته، يتأمّله زانا طويلاً حد الشرود:

- أتعلم؟!
إنه يحرص على البندقية من الصدأ؛ كي لا يصيب حلمه الفتور، يحرص عليها من الصدأ، كي لا يكون رقماً في سجل الشهداء.

قالها لمتين وهو يمسح عن بندقيته الغبار.

- آهٍ يا صاحبي! بعض الأحلام وردية تخترقها أسلاك المعاهدات، بعض الأوطان تلاحقها لعنة الجغرافية، تبكيها ذاكرة الزمان والمكان، بعض الأوطان لا سماء لها، فيها كلّ شيء مباح كأحلامنا المرمية في مهبّ الرياح، لا عيون تبكيها، فهي مشغولة بانتظار الأشباح، بعض الأوطان يُستقبل الأموات فيها بالزغاريد، لا ليس بعض الأوطان أو كلّها بل في هذا الوطن وحده يحدث هذا.

يقولها متين، والدمعة تجري على خده راسمة لوحة، لا معاني لها في هذه اللحظة الصامتة المميتة.

- أتعلم يا صاحبي؟!
في تلك البلاد التي يلد فيها الأفراد وجميع أحلامهم جاهزة مجهزة يوجهون الأفراد للقراءة، يوجّهونهم لنيل الشهادات العليا، أما نحن مرغمون أن نترك مقاعد الدراسة، وأن نحمل البندقية بدلاً من الكتاب، أما القلم فنحمله لنرسم لحظات الحنين والكثير الكثير من الوجع على صفحات مهترئة يعلوها الغبار، يقولها زانا، وفي قعر عينيه الكثير من الذكريات التي تكاد تتطاير في جميع الأنحاء.

يردّ متين غير مبالٍ:

- تبّاً للمعاهدات...
تبّاً لراسمي الخرائط وسارقي الأحلام...
تبّاً للمصالح الدولية...
تبّاً لهم جميعاً...

يسود صمت طويل لا يقطعه شيء سوى صوت الذباب، وعلى حين غفلة يخرج زانا قلمه، ويخرج دفتراً ذا غلافٍ أسود من جوف حقيبته المكسوة بالغبار، يخرجها من دون النظر إلى الحقيبة، فيده تهتدي إليه تلقائياً بفعل التكرار.

- ماذا تفعل زانا؟

يقولها متين، وعلامات الاستفهام قد ارتُسِمت على محياه.

- آهٍ أيها الثرثار! دعني وشأني، سأرسم البعض من نغمات الرصاص بقلمي الجاف؛ لعلّها تصدر لحناً يشبه الأحلام...

قالها زانا، وقد ارتفع صوت الرصاص في الأرجاء، حمل كل منهما بندقيته، واتّخذا مكاناً يصوبان منه على عدوّ الأحلام.

وبعد انقضاء الساعات ومرور الأيام،بات صوت الرصاص منبهاً للاستيقاظ ،وبعد أن اختزنت ذاكرة الأرض صوت خطوات الجنود ،وبعد أن سمّى كل جنديٍ نجمة باسم حبيبته فيراقبها كل مساء ويحن إليها في النهار.

جلس زانا على فراشه الممدود في غرفةٍ بنوها بعد أن حفروا الأرض – نصفها كهف والنصف الآخر قبو، هكذا يمكن تسميتها – وراح يفكّر طويلاً فسرقته الأيام الماضية من حيرته الحاضرة، سرقته حيث الأقلام والدفاتر على مقعدٍ عتيق، ظلّ هذا الموضوع يشغل باله لأيام، حتى اتخذ قراره في إحدى الصباحات، خاطب متين قائلاً:

- سوف أعود للدراسة، أجل سوف أترك الحياة العسكرية.

تفاجأ متين من هذا القرار الفجائي، وحاول إقناعه على عدم الإقدام على هذا القرار، لكنه أبى، وظلّ معانداً كلّ محاولات الإقناع تلك.

- لربما تكون محقّاً يا صاحبي أو مخطئاً، لكنني حسمت أمري.

قالها زانا، ومضى يطوي صفحة أخرى من حياته، صفحة كانت مليئة بصوت الرصاص، كتبها؛ علّه يساهم بجزء بسيط من كتابة الحلم الجميل لأبناء هذا الوطن الكبير، مضى ليرسم زمناً جديداً على صفحة جديدة بيضاء، هذه المرّة اختار القلم ليصل أنينه حدّ السماء، أنين القلم هذا لا يشفي الأوجاع لكنه ينجينا من الغرق في فوضى اللازمان، يرسم الوجع ومعه الكثير من لحظات فرحٍ هارب.

فقط في هذا الوطن الكلّ حائر في خياراته، يجري نحو إحدى الأحلام محطماً ما تبقى منها في فوضى عارمة، يترك هذه ويتمسّك بتلك، وهكذا يدور في دوّامة يخترعها بنفسه:؛ ليغرق فيها وحيداً كوطنه الوحيد أبداً، حتى هذا الوطن حائر بين صوت الرصاص وأنين القلم.

شمس عنتر

«المرأة الوفية تحكم زوجها وهي تطيعه».

بوبليليوس سيروس

لوحة الرعي

فتح أحد المحامين الثلاثة باب القصر وقلوبهم يعتصرها الألم حزناً وهم يتوقعون السوء.
فعلاً الحزن لا يدوم لكنه يرتدي أثواباً أخرى، فقد وجدوها تتنفس قبالة لوحة الراعي متكئة على وحدتها شاردة بتفاصيلها.
الراعي الذي يرعى غنمه حيث العشب المخضوضر مع حماره والبردعة المتدلية على ظهره، ومن خلفه الحقول الخضراء الممتدة وبينها حصادة «مسيو هارس» الحمراء.
ومن بعيد يلوح سرب من الفتيات تتطاير أثوابهنّ وكأن الريح توشوش لهن بأسرار الغرام، فالبسمة مرسومة على الشفاه الكرزية بدقة متناهية.
كل هذا مؤطر في لوحة كبيرة غطت مساحة واسعة من جدار الصالة الفسيحة المجهزة بأفخر أنواع الأثاث المزينة بالديكورات الفنية الراقية.
وتلك المكتبة الزاخرة بعناوين الكتب المشهورة تنشر أنفاس الحكمة في الأجواء.
فقبل أقل من شهر كانت «أم سارا» على نفس هذه الأريكة، لكن بحالة مختلفة فقد كان وجع الفقد في ذروته.
«أبو سارا» كان في تابوته هنا وهو العزيز عندها، فقد أمضيَا معاً حوالي خمسين عاماً، واليوم ستبقى وحيدة، فكيف ستحمل ثقل شهرته وأعباء حياته الثانية فمثله لا يموتون بسهولة.
لكن بسبب حظر التجوال المفروض وللأسباب الاحترازية من فايروس «كورونا» لم تقم أم سارا بأيّ مظاهر للعزاء، هي مَن عزت نفسها ومسحت دموع قلبها وقبلتْ عن المعزين وجنة أبنائها في صورهم وباتت ليلتها في حيرة كيف ستخبرهم؟ وتولدتْ فكرة في خاطرها المكسور.
فما يؤلم اليوم سيهون غداً وهي الحياة هكذا ما كانت البداية كما توقعتها ولا النهاية التي أرادتها واستفادت من استشارة عقلها مع قلبها.
عملت على إجراء الاتصال الجماعي وحين تم الاتصال بهم جميعاً، وضعت الهاتف بيد أحد المحامين وأعطته إشارة البدء.
فمهّد المحامي للأبناء بذكر بعض المواعظ الدينية ثم تكلم بالجزء الصعب.
البقية بحياتكم كما سمعتم فإن والدكم توفي البارحة...
واليوم توفت والدتكم!
كأن الشاشة صُعقت من قسوة وقع الخبر وباتت تصرخ بآهاتهم وترشح بدموعهم.
وارتفعت الأصوات، أحدهم يبكي والآخر يحوقل والثالث يبسمل وتمتمات غير مفهومة، لكن صوت البكاء الأنثوي غطى على كل الأصوات الأخرى.
كاد المحامي أن يرمي الهاتف لولا نظرة حادة من أم سارا الواقفة بعيداً وهي تكاد تختنق من البكاء وتكتم الآهات بصدرها.
استجدى المحامي قواه وقرأ عليهم وصية والدهم باختصار شديد:
سرب الفتيات لسارا، والحصادة مع السهول لصافي، والراعي وقطيعه لفادي، والحمار مع البردعة لشادي، وسيصل كل واحد منكم رقمه السري للجزء الخاص به، اعذروني الآن، أنا مضطر أن أغلق الهاتف.
ناولها الهاتف حانقاً رغم تعاطفه الشديد معها، والآن ماذا يتوجب علينا فعله؟
اعملوا على دفنه بشكل لائق، أعلم مدى خطورة الوضع تماماً واتركوني وحدي، فلم يعد في العمر متسع للندم!
رغم النقاش الطويل لكن بقيت مصرّة أن تبقى وحيدة قائلة: أن هذا الفايروس لن يتأخر بالقضاء عليها مثلما فعل مع زوجها فلما تكرر حزن أولادها! وقد يحاولون المجيء لرؤيتها وهذا غير ممكن فلن يحصدوا سوى الحسرة والخيبة.
الأمهات تفنين أعمارهنّ لحفر ثقب يمر فيه النور والفرح إلى حياة الأبناء فلا تريد أن تكون السبب في تكرّر حزنهم بعد أيام!
لكنك هكذا تموتين قبل أوانك، أجابته والدموع غلبتها، هكذا نحن الأمهات، ثم أن الوقت يفلت مني وعلي إتمام واجبي حتى آخر رمق، فالعمر المديد يجعلنا مؤمنين بأشياء ما كنا نؤمن بها .
ودعتهم وأقفلت درفة الباب الثابتة لباب القصر الكبير والتي ما كانت لتفتح إلا لأمر جلل.
كانت قد قضت سنتين ترسم تلك اللوحة فهي المهندسة التي أُجبرت على الزواج من ابن عمها الذي بالكاد يعرف القراءة والكتابة لكنه عُرف بشهامته ومواقفه الإنسانية.
وتطلب اكتمال اللوحة تقني إلكترونيات وحداد وفني أقفال فهي خزنة سرية لتحتفظ بكل وثائق الإرث من أجل أبنائها كلاً حسب حصته في صندوقه الخاص.
الصناديق الأربع منفصلة ولكل واحدة مفتاحها السري لكن من الظاهر تبدو لوحة لراعي مع قطيع غنم.
الشيخوخة مخيفة وخاصة مع الوحدة والمرض، والتراجع مستحيل! فلا منجي من الهرم ومن ثم الموت!
بقيت أم سارا في كل ليلة تخاطب أبنائها قبل النوم ومن ثم تغفو على الذكريات.
سارا! كانت الفرحة البكر حلت مع الربيع حيث نوروز والاحتفالات، لذلك فقد كان مربعها سرب من الفتيات الجميلات، والمربع الثاني حيث الراعي وقطيعه كان لفادي الذي اشترى والده عشرة رؤوس من الأغنام بعد ولادته بأيام فقط.
والمربع الثالث كان الحصادة والسهول فقد كان في ولادة صافي الفأل الحسن عليهم إذ اشترى والده قطعة أرض وحصادة في اليوم الذي كانت الأم تحتفل بأربعين يوم على ولادته، هي عادة قديمة، حيث تجري تغيرات على الرضيع مثل انتظام نومه وتغيرات على شكله، فتأتي إحدى العجائز لتحممه بصب أربعين كأس من الماء فوق رأسه وهي تطلق الأدعية له بحفظه من عيون الحساد وتكون هناك قطعة من الرصاص المذاب لإبعاد العيون الشريرة عنه، فكان مثل غيلم يقلص عنقه فيغوص الرأس في قوقعته.
شادي آخر العنقود صاحب مربع الحمار والبردعة!
بعد ولادته بشهر كانت العائلة قد قررت السفر إلى المدينة ومعها الأموال الكافية لشراء هذا القصر الذي سكنوا فيه معاً ومنه تفرقوا إلى أصقاع العالم.
وتوسعت تجارة الوالد حتى أصبح من أشهر رجال الأعمال في المدينة.
كان المحامون يمدون أم سارا بكل احتياجاتها فهم المؤتمنون على كل أملاك العائلة وكانوا يخشون في كل مرة أن يجدوها ميتة لكنها كانت أقوى من «كورونا».

نواح بوهيمي

عادل جميل زعبي (فلسطين)

مخيب للحب
لم تأخذي حبوب منع الحزن
وبكيت
وكان الواعز ضميري العاجز
كغربال حنطة
تركت بذور دموعك تتساقط
لترفد تربة الكلمات
كيف تجازف بولادات خارج الأعراف
أشك
بشرف سنابلنا المعقوفة
تلك التي انحنت لتشهد انزلاق بثور الضوء
على عتمة جذورنا المحروقة
اخلعي عباءة خروجك العاثر
واتركي لي محاولة الانتظار
استفزني الرجوع
وبرهة خارجة عن السرب
ألا يا فتنة صبي
علي أتناولك ببطء
أناملك
يا وجع اللمسات كرغيف بارد
وخز غلوك
باهت حديث المعالق
بارد فمك وفمي
وقميصي الهارب من فتور أناملك
أرأيت الطريق
يا خطوات العصافير الهاربة
ذاك ابن سبيل
جذرك النابت على أهداب وصولنا الحذر
على شرشف انبهار
نام الكلام بلا إذن
نسي مفاتيح الحروف الصدئة
بحبر ناشف
ابتلعه يراع الدهشة فأصيب بعسر الهضم
وداء الجهل
كنت أحاور طرش دهشتك
وكنت ترتبين نزوات عباراتك وبلا طنين عابر
كان كهمس الردة يجاور كسل امتعاضي
وكنت أختلس كضرير بعض ضوء جذرك النابت
على عتمة تربتنا الحامل
لم تك ولادات
لم يكن إثم عفة خطوتك الفاضحة
تلك خطيئتي
أن اقتبستك من إرث كتبة مبهورين
بشرف المهنة
فامتهنوك
نادرة أنت
كخروج لائق من حكايا القديسين
أسفار ارتجلت على عجل
الجو رديء
وخفايا التهميش عفية
عقيمة سلالات البكاء الحذر
كتكايا براهمة الحبكة
بطقوس الشغف
بتراتيل الرهبة
أعددت سرادق مزاميرك
لعليّ أتقن رتق ثقوب حروف علتك
بسراديب الشريان التاجي
بحواصل صغار الورد
بلكنة لا يدركها إلا العارف
أخفقت
أخفقت كتابتك البديلة.

سلمى جمو

ليلة استثنائية

كثيرٌ من الألوان الحمراء
في الأقداح والشموع والوجنات...
كثيرٌ من المجون والعربدة
في الشفاه والأصابع، وفي ما شاء الربّ...
ما عاهدتك خجولاً متردّداً ممانعاً
كن كما ألفتك، جامحاً شرساً...
الليلة استثنائية
بكلّ ما تحمله أنت من غرور،
وبكلّ ما أحمله أنا من هزائم.
دعني أملأ كأسك بخمرة ضعفي،
وكأسي بخمرة انتصارك؛
ولنرقص سوياً،
حدّ النشوة
حدّ السُّكر
حدّ الكفر
أستلذّ بفتوحاتك يا أنت
وأنا أضاجع خيباتي
حسناً!
كما اتفقنا، لا عراك
فقط احتفال
ثم احتفال
ثم احتفال
هيّا لنشرب كأسنا العاشر
نخب نرجسيتك
سادیتك،
ومازوشيتي
هيّا لكأسنا الحادي عشر، والثاني عشر
نخب اللامبالاة
دعني أُعلنها:
استطعت سبْي أيّها الألم.

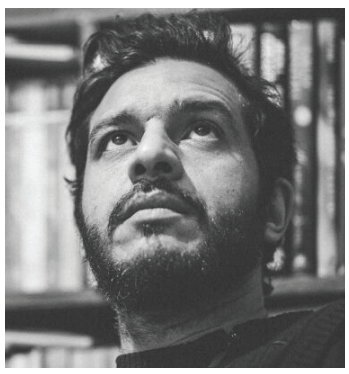

فؤاد ناجيمي

عدنا من الآخرين

– 1 –
إنما
نكتب للحبّ
نحيا للحبّ
نغني للحبّ
ونحلم بالحبّ
بهذا المستحيل فينا
وعلينا أن نستجيب
لدواعي دواتنا الباردة
ليكتمل بنا النقصان
كنجمة في بعدها شاردة.

– 2 –
مذ عرفنا الليل إليه
والسوءة تتلقفنا بنهم
نحن وليمة للسراب
واقترفنا معبد القلب
ندخله طواعية على
جسد منا مرغمين
ونخرج كأي حاضر
يحتدم فيه الغياب
كما نطفة خيانة
من سلالة خيمة بائدة.

– 3 –
عدنا من الآخرين
إلى أيامنا خائبين
وعادوا من حيث كانوا،
صفر منذ الوقت
بينهم، تحتهم، فوقهم
وطردوا من التاريخ
هي أسماء بائدة
فرد لفظته الجماعة
وجماعة ولدت
دفعة واحدة.

– 4 –
ولدوا على عجلة
من بطئهم
ولدوا لحظة التشابه التام
ولهم في الموتى أعياد
عيد جلاء أم ولاء
سيان، لا شيء
سوى دماء إخوانهم
على شرف العدو
يجس القتل،
ولي أن أتلو الوصية
لا تعد هناك
وأخر صيحاتي
على المذابح شاهدة
لا نحن هم
ولا قلوبنا
إلى البغاة عائدة.

– 5 –
كم كنا نحب
لم نحب
من عري الكراهية
وما بعد المزيف
هنا سقط الشرق
عن أسطورته
ألف ليلة وليلة
واستقال الشرف
من العرض العربي
كم هي الجواري سائدة
أما الصحراء فقد بدت
لها في كل ناحية قاعدة.

– 6 –
إنما نحبّ الحبّ
ولنا فيه سماء
نصعد مع كل قافية
ونطيل فيها الحلم
ونعرف حزن الأظافر
من لونها وملتقى
الكلاب بين نهدين
لكننا نغض الكلام
عن ماخور ما ونترك
المقايضة لنفسها عابدة.

– 7 –
إنما
نكتب للحب
نحيا للحب
نغني للحب
ونلتف حول الحب
كما يلتف رواد
القمار حول مائدة.

همسات القلم

«ماه شرف خان »مستورة الأردلانية
1848 - 1805

نارين عمر

كما البساتين النّضرة التي لا تزهر إلا بالثّمار الخيّرة واليانعة أبداً وفي مختلف الفصول والأوقات توجد أيضاً مدن ومناطق تزدان بزهورها ووروردها العطرة وحين نتذكّر أهمّ هذه المدن تخطر على البال فوراً مدينة ”سنندج“ أو ”سنه“ الواقعة في شرقي كوردستان ”كردستان ايران“ والتي كانت لعقود عاصمة الإمارة الأردلانية الشّهيرة بتطوّرها في مختلف المجالات والاتجاهات السّياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك الأدبية والمعرفية منها ما جعلها تفخر بأنّها أنجبت عشرات المبدعين من الرّجال والنّساء على مرّ التّاريخ وما يجعلنا ننتشي اعتزازاً وفخراً أنّ بستان رحمها أنجب الكاتبة والشّاعرة والمؤرّخة الخالدة ماه شرف خان التي اختارت لها فيما بعد لقب ”مستورة الأردلانية“.

ولدت ماه شرف خان في مدينه سنه في عام 1805م خلال فترة حكم الأمير أمان الله خان أمير أردلان -والذي سيصبح فيما بعد والد زوجها- من أسرة ثريّة ومعروفة من جهة أبيها وأمّها أيضاً، كان عدد من أفراد عائلة أمّها في مراكز حكوميّة وأدبية بارزة لأنهم كانوا يساندون الأمراء الأردلانيين ويخلصون لهم، أمّا من جهة أبيها فتنتمي إلي العائلة القادرية التي كانت تتميّز أيضاً بالثّراء والنّفوذ القويّ.

والدها هو أبو الحسن بك الذي أولى رعاية واهتماماً كبيرين بتنشئة وتربية أولاده، ويبدو انّه كان على درجة كبيرة من الوعي والثّقافة بحيث لم يكن يفرّق في التّعامل بين أولاده الذّكور والإناث معاً، وخير دليل على ذلك اهتمامه بابنته ماه شرف خان يعتزّ بها على الدّوام، ويُقال إنّه كان يدعوها إلى مجالسه ويصطحبها في زياراته للأماكن والمدن وخاصة الأثرية منها والعائلات الأخرى، وكان قبل وأثناء كلّ ذلك يروي بذور الإبداع الفطريّة فيها، بذور الخيال والشّعر والقصص والتأريخ برعايته وتشجيعه وعونه له ما جعلها وخلال فترة شبابها الأوّل تعدّ في طليعة كتّاب وأدباء عصرها من الرّجال والنّساء بل ويذهب الكاتب حميد إلى أبعد من ذلك حين يقول: ” وكما يبدو لنا فإنها تعدّ المرأة الوحيدة، في تلك الفترة في الشرق الأوسط، وربما الشرق كله التي كتبت في التاريخ، واشتهرت على الأغلب كشاعرة برعت في قصائد الغزل والمراثي على شكل رباعيات ومثنويات كما كانت خطّاطة بارعة“.

قصّة زواج ماه شرف خان من الأمير الأردلاني:

تورد ماه شاه قصّة زواجها من الأمير خسرو خان عقب المؤامرة التي حيكت ضدّ الأمير للإطاحة به على أنّه وخلال الحرب الروسية الإيرانية حاول بعض الآغاوات بالتعاون بمساعدة الروس وبالاتفاق مع شقيق الأمير المعزول من حاكمية منطقة ”اسفند آباد“ للإطاحة بخسرو خان وعزله من منصبه، ولكنّه علم بأمر المؤامرة وتمكّن من القبض على الذين حاولوا ذلك وكان من ضمنهم أبو الحسن بك والد ماه شرف خان بعد التّحقيقات تمكن والدها من إثبات براءته ففكّ الأمير أسره، ولمعرفته بمكانة وشأن أبي الحسن حاول كسب ودّه فقرّبه إليه وعرض عليه منصباً لائقاً، وليجعله يوافق على ذلك طلب من أبي الحسن يد ابنته ماه شرف خان في عام 1826م سراحه.

تؤكّد المصادر التّاريخية ومن ضمنها كتابها ”تاريخ أردلان“ على انّ الأمير أقام احتفالات زواج كبيرة شاركهم مختلف شرائح سكّان الإمارة بهجتهم وفرحهم.

بهذا الزّواج شعرت شاعرتنا بامتلاكها كنوز الكون ومشاعر وأحاسيس البشر كلّهم، كيف لا والأمير كان شاعراً ومثقفاً مجيداً ما جعلهما يعيشان أسعد وارواع ايّام العمر.

مع الأسف لم يشأ القدر لزواجهما أن يستمرّ سوى لعدة أعوام فقط حيث ألمّ بالأمير الزّوج والحبيب داء لا شفاء له، ورحل في عام 1835م وبرحيله خلّف امرأة حبيبة عاشقة تعيش بجسد فقط بعدما أخذ منها قلبها وروحها وما يمتلكان من مشاعر وأحاسيس.

وفي ذلك تقول:

أتى الربيع يا خسرو، أتى الربيع!
أنا ضريرة من كثرة غيابك يا خسرو
ها أتى الربيع، وقد توجت المروج
بالورود والريحان
ما أشد ألم هذا الوداع!
أما تسمع قبقبة الحجل في القمم
وقد اتشحت المروج والرياض بأجمل أزياء
تزقزق الجداول نشوانة في خريرها
تغني العنادل أغاني الشجن
وافترشت السهوب أزهاراً
البلابل ثملة بخمر عشق الورد
تضحك الأقاحي في البساتين نشوانة
تحنو عيون النرجس الخمرية على الربيع
تتمايل الأعشاب في رقصها مع النسيم
وتغوي القلوب
لكنَّ غيابك غيّب الربيع يا خسرو!

كان الأمير يثق بقدرات الأميرة الإبداعية في كلّ المجالات التي تكتب فيها لذلك أول إليها مسؤوليّة تدبير شؤون العائلة الحاكمة والتّشريفات والبلاط وغيرها، وكما كان يفعل والدها كذلك كان الأمير يصطحبها في رحلاته وزياراته للاماكن التّاريخية والسّياحية وتفقد الرّعية، فكانت تصغي إلى ما يروونه عن حياتهم وأمورهم ومختلف شؤون وهموم حياتهم اليوميّة ما أغنى مخيّلتها فكرها، وأثرها وجدانها وعواطفها بنصوص أدبية وتاريخيّة وفنّية ترتقي إلى الأدب الرّاقي والمميّز.

حكايتها مع القدر والزّمان:

القدر الذي فاجأها بأكثر المصائب قسوة وظلماً باختلاس زوجها الأمير الذي كان لها الحبيب والصّديق وفارس الأحلام وظلماً والزّمن الذي غدر بها ولم يشأ أن يهبها ولداً ينسّيها آلام وأوجاع فاجعتها زادوا من قسوتهم وظلمهم عليها حين جعلوها تتعرّض للفرار والتّهجير والتّشرد بعد أن كانت أميرة تعيش في رغد عيش وثراء جاه، حين قرّر الشّاه الإيراني القضاء على إمارة أردلان، وتمكن من دخول القصر وتهجير أكثر من ألفي شخص إلى مدينة مريوان وبعدها فرّوا إلى إمارة بابان في جنوبي كردستان.

مع الأسف كانت مستورة من بين هؤلاء المهجّرين ولجأت إلى مدينة السّليمانية وعاشت مع عائلة بيت ابن خالتها حسين قلي خان.

ماه شرف خان أو مستورة الشّاعرة:

طبيعة كردستان عموماً وطبيعة مدينتها الجلابة منحاها ثراء عاطفياً ووجدانياً قلّ نظيره، ثمّ جاء الحدث الأهمّ والأبرز في حياتها والذي جعلها إحدى عاشقات التّاريخ المميّزات هو اقترانها بالأمير خسرو الذي تحوّل إليها حبيباً لدرجة القداسة وأمير قلبها وروحها وصديق مشاعرها وأحاسيسها وأنفاس فكرها بالإضافة إلى تنشئتها في بيت عزّ وثراء ووجاهة وما كانت تتلقاه من أسرتها ومحيطها وخاصة من أبيها من الدّلال والحنان والدّفء، كلّ ذلك جعلها تتنفّس الشّعر، تنبض بالحبّ والعشق الوافرين، تعين الفكر بروافد المعرفة والثّقافة، ويُذكَر أنّها كانت تتقن ثلاث لغات هي الكردية والعربية والفارسية.

شعر مستورة يصلح لكلّ زمان ومكان لما يتميّز به من غنى الموضوعات والمضامين من الغزل والوصف والرّثاء والفخر والرّقة والوفاء.

تقول في رثاء زوجها:

ما أضيع دنياي!
بعدك من يدلني
من يخرجني من غياهب العذاب
فدونكَ العمى والموت يا خسرو!
وفي الحبّ تقول:
نار حبك، هيّجتْ قلبي
ينتابني الجنون
أهيم في دنياي
أذاك أنين ”مستورة“
يزلزل الأرض تحت أقدام الناس
أم أنه يوم الحشر
و يتناهى إلى الأسماع صراخ المذنبين
من العذاب الأليم؟
وفي حيرتها وانكسارها تقول:
لم تعد مستورة تعرف أطرافها
لشدة الحيرة والذهول
حذار! من آهات المظلومين أن يحرقوا
الآفاق بشعلة
تلك اليد لم يخضبها لون
بل جرحي الرعاف يغمسها في الحناء
المعلم الجاهل لأصول الوفاء
لم يعلّم سوى سبل الغدر والظلم
فـ”مستورة“ ما عادت تعرف أطرافها لشدة
حيرتها وذهولها.

تقول بعض المصادر على أنّ ديوان مستورة الشّعري كان يتضمّن أكثر من عشرين ألف بيت باللغتين الكردية والفارسية مع الأسف لم يصلنا منها سوى ألفي بيت وقد تمّ جمعها وطباعتها من قبل حاج شيخموس يحيى المثقف الكرديّ المهتم بالأدب والأدباء في عام 1926، وكذلك قام بطبع كتابها تاريخ أردلان 1946م.

كان لمستورة شرف الحظوة باهتمام الكتّاب والباحثين والمؤرّخين ومنهم رضا قلي خان هدايت في كتابه مجمع الفصحاء، وفيها يقول الشّاعر مولوي:

((شمس الحسن والدلال، جالسة على عرش ملكوت الطهر والعفة، تفيض دفئاً و نوراً على الجميع)).

أهمّ كتبها ومؤلّفاتها:

ديوان شعر مؤلف من عشرين ألف قصيدة.

كتاب تاريخ أردلان وبه نالت شرف ان تكون مؤرّخة بارعة.

المصادر المراجع:

.....

مستورة الأردلانية، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
الشاعرة و المؤرخة الكردية: ماه شرف خانم المشهورة بـ ”مستورة كردستاني“ (1804م – 1847م) مقالة للكاتب خورشيد شوزي -3-8 2014
مقالة بعنوان ماه شرف خان كردستاني للكاتب حميد كشكولي منشورة في الحوار المتمدن 13-10-2003

السّرد الفني في رواية «سرير الألم»: مِجهَر ذاكرة وبناء موقف

بوزيان موساوي / المغرب

«سرير الألم» رواية للكاتبة المغربية «زهرة عز» صدرت عن دار «روافد» للنشر والتوزيع – القاهرة. (الطبعة الأولى 2017). الكتاب من الحجم المتوسط، يقع في (266 صفحة).

هذه الرواية (سرير الألم) تستهدف من وراء جماليتها كمنتوج أدبي فنّي الإفصاح بالتلميح والاستعارة على بناء الموقف؛ فجلّ (إن لم نقل كلّ) العناصر المكوّنة لهذه الرواية تتشكّل كما عمليات جمع قطع أو صور لعبة بازل (Puzzle)، بدءاً من مرحلة الإلهام أو الحدس، وترتبط كما بفكرة فجائية أشرقت في ذهن الكاتبة زهرة عز مثل الوحي، تستهدف من ورائها بعث رسائل (عبر قناة رواية)، هي عصارة تراكمات فكرية ونفسية وعقائدية وسيكولوجية تحتاج لآليات ووسائل لغوية وأسلوبية ومرجعية فكرية...، باعتبار أن الإبداع الأدبي هو إنتاج لِخطاب، مروراً من مرحلة التحضير (ويتمّ عبرها إشباع الذهن بكل ما يدور حول مواضيع وإشكالات مضامين الرواية من معلومات وحقائق تاريخية وجغرافية وسياسية واجتماعية وفكرية... عبر البحث والتوثيق...)، ووصولاً إلى مرحلة التحقق (وتقترن باكتمال الإبداع وخروجه إلى حيز الوجود لإشراك قراء مفترضين في إبداء الرأي والرأي المضاد...) باعتبار أن الإبداع الأدبي يتصف بكونه تجاوزاً للمحاكاة وتأليفاً بين عناصر سابقة في صور جديدة.

ولأن الاعتماد على مَلَكة الذاكرة في سرد حكايات الرواية يحيلنا على إشكالية مفهوم الزمن الروائي كما تضاربت بشأنه آراء المنظرين والنقاد، ولأن أهم الآراء في السياق ذاته تفيد في غالبيتها بأنّ زمن الحكاية مرتبط عضوياً ووجودياً بزمن الكتابة (إذ لا حكاية دون اشتغال الذاكرة؛ والذاكرة كما فعل التذكّر ينتميان للزمن الحاضر، أي زمن الكتابة).

الذاكرة هنا/ الآن تحيي صوراً من الماضي، وتتمثلها من وجهة نظر آنية، لتستدرج أحداثها فتوظفها لبناء موقف لوصف الحاضر كتراكمات من الماضي، واستشراف رؤية المستقبل انطلاقاً منه...، فلق ارتأينا، للضرورة المنهجية، في مناولتنا هذه، تفكيك البناء المعماري، ومحاولة إعادة بنائه لمحاولة اكتشاف رسائل المبدعة زهرة عز من خلال هذه الرواية.

ولضرورة منهجية كذلك، لن نتوقّف عند إشكالية التجنيس: إن كان هذا العمل يستجيب لشروط الانتماء لجنس الرواية أم لا؟ البناء المعماري للكتاب، وهيمنة السرد الدرامي فيه قد يجنبانا سوء عاقبة، استفزاز جدال عقيم، يفسد علينا جمالية تلقي هذه الرواية... لكن هذا لا يعفينا من مساءلة بعض العلامات الخلافية المرتبطة عضوياً بتصميم البنية الخاصة بهذا العمل، من بينها اعتماد الروائية زهرة عز لعناصر فنية قريبة جدا من توجهات الكتابة الدرامية لدى الدراماتورج الألماني برتولد بريخت؛ من بينها، عناصر:

1 – التغريب:
والمقصود بالتغريب هو جعل الأحداث العادية اليومية غريبة ومثيرة للدهشة داخل فضاءات الرواية، وجعلها أيضاً باعثاً على التفكير والتأمل واتخاذ موقف...
يمكن للقارئ العادي أن يلامس حضور وهيمنة تقنية التغريب في رواية سرير الألم لمّا يحاول كعادته تجاهل العديد من الجزئيات التي قد لا تتدخل في نظره في مجريات الأحداث الرئيسة للرواية: كأنْ يرغب في طيّ الصفحات ليلتصق فضوله بكل ما يتعلق بالشخصيات الرئيسة أو المحورية كشخصية كريمة ويوسف، لكن هذا لا يتأتى له في هذه الرواية، لتداخل الحكايات (كما في تقنية رواية الأدراج Ro-man A Tiroirs للكاتب القاص والروائي الأمريكي اللاتيني بورخيص)، وتشعّبها، وتعدد الأصوات الحكائية، وكأننا بروايات داخل رواية واحدة:

ـ حكايات الجدة خدوج وصورة الاستعمار الفرنسي والإسباني بالمغرب، وزواج ريفية أمازيغية برجل عربي من خارج ربوعها و قبيلتها وأيام كان هذا الزواج شبه مستحيل بسبب تكريس الاستعمار لسياسة فرّق تسُد.

ـ وحكاية الأرملة كريمة مع عشيقها يوسف حكاية قد تستفز فضول القارئ المتشوق لمعرفة حيثيات وتداعيات عشق ممنوع بين امرأة (كريمة) مع شاب مثقف متنوّر (يوسف) كانت ثمرته حمل بعد أيام قليلة من هلاك الزوج الحاج الطاهر، الصائغ الكهل الذي كان قد اشترى أنوثتها مقابل توفير مصاريف العلاج من مرض القصور الكلوي لأمها، والتكفل بدراستها، وخانته حتى أثناء حياته لتنتقم لمكبوتات الأنوثة المقهورة.

ـ وحكايات شخصيات أخرى تحيل على نماذج بشرية أخرى من صميم الواقع (كما تراه الكاتبة زهرة عز) مثل حكاية الغالي الذي تحوّل إلى الغالية وظاهرة الجنوسة، وحكاية مصطفى وأخته مليكة وتيمة الاغتصاب المزدوج (الجنسي، والأصولي الديني)، وحكاية سليمة وبوعزة وتيمة تفكك مؤسسة الزواج، والدعارة... وغيرها من حكايات لنماذج بشرية أخرى ذات حمولات ثقافية وسيكولوجية واجتماعية مختلفة حدّ المفارقة، حدّ العبث...

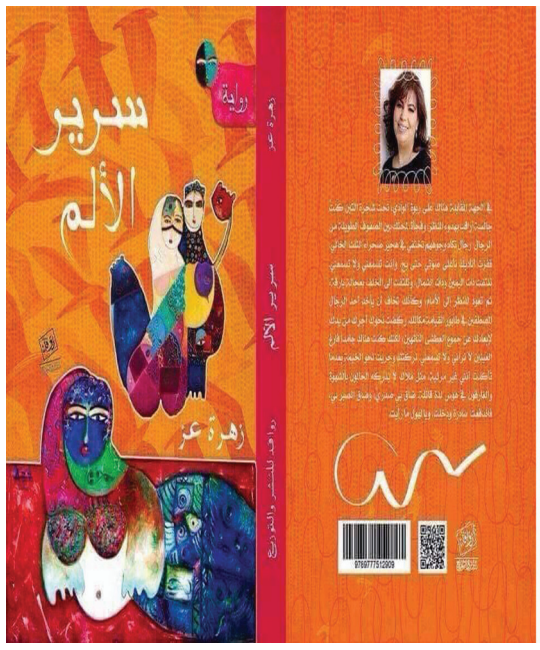

2 – التغريب بوصفه تكراراً، أي ذلك الإحساس الذي يتولّد عند قارئ الرواية المغربية المكتوبة بالعربية والفرنسية منذ ستينيات القرن الماضي إلى اليوم (ومنها رواية سرير الألم) بأنه يعيد قراءة نفس التيمات والبورترهات والأفكار عن الاستعمار، والحركات التحررية، وقضايا المرأة، وسنوات الرصاص، وثالوث المال والدين والجنس، والفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي...، لكن للتكرار هنا بعد فني يتعلق بأسلوب كتابة الرواية، وليس بالمعنى القدحي كما في اللغة العادية كمرادف للإطناب والحشو... هذه ظاهرة أسلوبية فنية تُذَكّرنا عند زهرة عز بنظرية فلاديمير كريزرسكي (Vlad-imir Krysinski) الذي يرى بأن «التطور الروائي من مقاربة سيميائية يمكن أن يكون مدركاً بمثابة تحسين لثلاثة قوانين (علامات) هي: قانون التكرار، قانون التشبع وقانون التحول؛ فالنص الروائي يكون تكرارياً عندما يكون مقيداً في بنائه وحركته بعودة نفس المواضيع والشكليات المتداولة ويكون مشبعاً من كونه أصبح ملزماً بالتكرار، ولم يعد قادراً على السمات الأسلوبية المكررة باعتبارها علامات خلافية، ويصبح تحولياً عندما يفرز شكلية وتيمية جديدتين تقفان بعيداً عن فضائي التكرار والتشبع».

هو ربما المبدأ نفسه (أي الابتعاد عن فضائي التكرار والتشبع والمجانيين) ما دفع بالمبدعة زهرة عز إلى اعتماد تقنية جمالية التجاوز بالخيال السردي عبر مقايضة في روايتها، عنصري التغريب، والتكرار بتقنية الاستطراد.

3 – الاستطراد، أو جمالية التجاوز بالخيال السردي:
وتتجلى عبر تقنية بناء المشاهد المتفرقة: حيث تتمظهر بعض الحكايات المسرودة في رواية سرير الألم على شكل مشاهد متفرقة، تقع أحداثها في أزمنة مختلفة ولا يربط بين الأحداث سوى الخيط العام للرواية؛ و ذلك اعتماداً على ما سمّيناه مِجْهَر الذاكرة: مقولة تُحيلنا على بناء أو تصوّر الزمن الروائي، باعتبار الأزمنة كما في منظور أنشتاين مصطلحات لأوضاع مختلفة في المكان، وباعتبار أن لا وجود للأمكنة بدون أحداث تميزها صنع الشخوص للأحداث؛ و من هنا جدلية الزمن/ المكان/ الشخصيات/ الأحداث... نسرد من رواية سرير الألم هذه المشاهد/ الحكايات على سبيل المثال لا الحصر:

أ – سرد حكاية زواج الجدة خدوج الأمازيغية الريفية برجل عربي (جدة وجدّ الشخصية المحورية كريمة) في زمن الاستعمار الفرنسي والإسباني، موازاة معها تسافر الذات الساردة عبر الزمن حتى ترسوّ في الزمن الحاضر أو الزمن القريب جدّاً، لسرد حكاية من شغب ملاعب كرة القدم، تسلط الضوء على وقوع ضحايا عنف بين جماهير كروية (فرقة من الحسيمة ضد فرقة من الدار البيضاء)، و كانّ الوعي الذي تولّد عند أجيال المقاومة ضد الاستعمار الهادف إلى المصالحة بين الأمازيغ والعرب احتراماً لمبدأ التعددية داخل الوحدة، قد تبخر في الزمن الحاضر لحسابات منافسات رياضية تُغَيّب الروح الرياضية؛ لِتُشعل فتيل العصبية القبلية والعرقية.

ب – سرد حكاية ابن رشد ومعاناته مع الفكر الظلامي الذي أحرق كتبه العقلانية التنويرية التحررية موازاة مع حكاية العشق الممنوع بين كريمة (الشخصية المحورية المتمردة على الذكورة بمختلف أنواعها ومشاربها...)، ويوسف (الشاب المتنور الذي يعتبر نفسه مريداً لا مشروطاً لفكر ابن رشد): حكايتان قد يكون الرابط بينهما ذاك الاعتقاد الراسخ بأن التمرّد – الثورة فكرة، وبأن الأفكار الايجابية لا تموت، لكن يجد القارئ نفسه أمام مفارقة عبثية غير واردة في خضم تطلعاته وآفاق انتظاراته، إن كريمة تمرّدت على الرجل بوصفه ذكراً، وألغت وجوده من حياتها، وأجهضت حمولته الفكرية الطلائعية التنويرية...

ج – حكاية انتظار يوسف لمصطفى الذي غادر السجن بعد قضاء عقوبة كمعتقل رأي، والذي تخلّف عن موعد لقائه بيوسف (وكأننا في مشهد من مسرحية غودو لسمويل بيكيت: غودو الذي لا يأتي أبداً)، وحكاية لقاء مصطفى في السجن بأبي حذيفة (وهو لقب حركي متداول يحيل على المتورطين – المستقطبين ضمن تيارات الفكر السلفي الأصولي الديني المتشدد)، حكاية لقاء لم يتمّ يُترجم صراع المواقع بين الظلام والنور منذ بدء التكوين...

والسؤال: هل الاستطراد في السرد فوضى أم إثارة؟ هو سؤال قمنا بصياغته استئناساً بأطروحة الباحثة العراقية الدكتورة وفاء رفعت العزي؛ كتبتْ في السياق ذاته: «إن الأديب له غاياته الخاصة من نتاجه الأدبي قد تكون في إثارة القارئ نحو بنى سردية دقيقة غير مألوفة يزجها في الاستطراد للفت نظرهم فتصبح كوقفات تأمل تميل إلى التفريع والاستطراد مع اتجاه فكري ينزع إلى أساليب الفلاسفة، وإعلاء قضايا العقل ليعود بعدها إلى التواصل مع السرد الحكائي...».

4 – تقنية تعدد الأصوات الحكائية، وبناء الموقف:
تعدد الأصوات الحكائية في رواية سرير الألم (الذات السارد العالمة؛ كريمة، الجدة خدوج، يوسف، مصطفى، الغالية أو الغالي، سليمة...الخ) تدخل في إطار ما يُسمى عند المنظرين والنقاد بالتبئير الخارجي (Focalisation Externe)، أي لمّا تنوب شخصيات ورقية من الرواية عن الذات الساردة الرئيسة (كريمة أو زهرة عز؟) لتروي حكايتها، فهي الأصوات الحكائية المتعددة تتحوّل إلى شهود (– Narrateur Témoin)، الشيء الذي يضفي حسب بعض الكتاب والنقاد بعض المصداقية على الأحداث... لكن هذه التقنية (ظاهرة تعدد الأصوات/ الشخصيات)، قد توحي أيضاً من وجهة نظر علم النفس التحليلي بحالة متقدمة من الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية) بلغت ذروتها لتصبح من الناحية الكلينيكية حالة سريرية (كما قد نقرأ في عنوان الرواية سرير الألم)، لغتها الهذيان على شكل حكايات تتقمص الذات الساردة الرئيسة فيها دور شخصية من شخصيات الرواية، و كأنها هي نفسها كلّ هذه الشخصيات مجتمعة بداخلها: شخصيات/ أصوات/ أفكار/ مواقف ذكورية وأنثوية تتصارع بداخلها (الذكر/ الأنثى/ الخنثى/ الخانع (ة)/ المتمرد (ة)/ المتحرر(ة)/ المتنور(ة)/ السلفي(ة)/ المنافق(ة)/ الكاذب(ة)/ الغني (ة)/ الفقير (ة)... هو صراع داخلي سريري تعذر عليه إنتاج موقف قار ونهائي...
هل رواية سرير الألم سيرة ذاتية للكاتبة زهرة عز؟ هذا سؤال آخر.

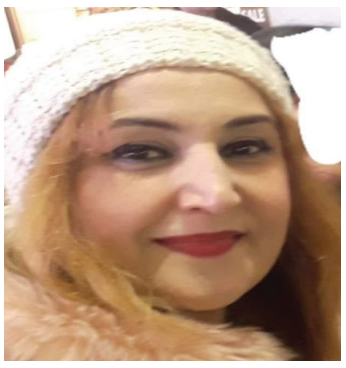

فاطمة محمد

العاصفة

أيا وطنا يلفظ أنفاسه الأخيرة
أي عهر هذا
الذي يصنع أقدارنا
الذي ينسج خيوط مستقبلنا
أي عهر هذا
الذي يسلب أحلام طفولتنا
كل ازهار حدائقك
حزمت حقائبها وهاجرت
السحب خائفه
الطيور مهاجرة
كل الأرصفة...تنزف وحيدة
كل الشوارع إختنقت بذاكرتها
أيا وطنا يلفظ أنفاسه الأخيرة
سكن الموت تفاصيلك
سكن النسيان ساعاتك
أيا موتا حاضرا فينا بكل جبروتك
إلى أين...
هل معدتك لازالت خاوية
تبحث في كل لحظة عن ضحية
تغتالها من ذاكرتنا
تشهر حنجرتك بشراهة
في وجه شرايينا وأيامنا
هاقد إستوطنت لحمنا
وإحتليت ساحاتنا وعشب حدائقنا
أرصفتنا
أعشاش طيورنا
أحلام طفولتنا
سكينة كهولنا...ومرح أطفالنا
لازلت تضاجع مآذننا
وتغتصب ذاكرة اجراس كنائسنا
و...تستر عوراتنا
أيا أيها الموت
ياضيفا ثقيلا حل على دقائقنا
وأنسجتنا
لازلت تحرق الألم والأمل فينا
نراك متسكعا في أزقتنا
تتجول في كل مكان
تلهو بأحلام أطفالنا
تسكن في قطرات مطرنا
أتراك أحببت أقنعتنا
حياتنا ...وموتنا
أشباحنا التي تملئ كل مكان
سكنت فينا..
أيا وطنا يلفظ أنفاسه الأخيرة
نحن أشباحك
نأبى التلاشي
فارحم أشلائك...

خديجة بلوش

انزياحات

المسافات تحرق كل حلم غض، هي شبيهة بقيظ يأكل الأخضر واليابس. قد أطرق بابك يوماً وأقول لك: هل يمكنك أن تسمعني للحظات؟ قد تستمر اللحظات دهراً، وقد أنظر للسماء وأنا أكلمك، وقد أرسم بأناملي نهراً متعرّجاً وقد أفكّ جدائل افتراضية، وقد ألتزم الصمت وأنا أعبر من البوابة، أركض، أركض...، ثمة أيادٍ كثيرة تحاول الإمساك بي، تلك أياديهم، أولائك الراحلون، لم أكن ألقي التحية، لم أكن أبتسم لهم، كنت أهاب تلك الهالة التي تسبقهم (راحلون)، أتنفس الصعداء حين أدخل للمكان، أهمس بتحية خجولة للجالسين هناك، يرعبني أنهم مثلي يحملون على كواهلهم لحوداً، يؤلمني أني لا أستطيع الابتسام، قد أسبقهم لكن مَن يدري قد يرحلون قبلي وهذا يؤلمني.

الأسرة المتقاربة وضجيج المميدين، أستمر في السير نحو سريري، ذاك السرير المزري، والآلة التي تنتظرني باحتقار كأنها تهمس لي «سأغتالك»، الشراشف الوسخة والوسائد المبقعة دماً، كل شيء هنا بائس، وبداخلي تفاصيل لم يتسنَّ لي أن أدفنها، أهمس لأمي «الغرفة بحالة سيئة»، تهمهم ولا تلقي بالاً، أغمض عيناي، ثمة شرود يشبه الموت، من شقوق النافذة يتسلل شعاع شاحب، يرسم حدقتين على الجدار، هي نظرات فارغة بيضاء.

- الظلام حالك يا أمي.

لا أسمعها، أحملق في السقف.

- أمي هذا المصباح شاحب.

أستمر في التحديق في الفراغ.

- أمي هذا الجدار يبدو باهتاً مقارنة بالآخر.

تفتح عينيها باهتمام، تحملق بدورها في الجدار، تهمهم، أحاول فك طلاسم ما تقول، لكن عبثاً، لا أستطيع.

- أمي أعرف أني أزعجك، رحلتي التي استمرت عمراً وانتهت بالفشل، تكرهين فشلي وأكره صمتك.

أمي أنا أشبه أبي وهذا أيضاً يزعجك، أبي الذي كان يشتم كل شيء، يحمل نعشه بيده ويقول «لن أموت الآن»، أبي الذي كان جريئاً، أبي الذي كان يحاول اختراق ثيابك السوداء، ولا ينجح، كان يقول «تلك المرأة جسدها يانع»، كان يشاكسك كي ترتمي في حضنه، ولا يفلح، يدخن غليونه ويرسم بدخانه تفاصيلك.

- أمي هل أنت نائمة؟

ترفع المخدة فوق رأسها.

- أمي لطالما كنت أسمع أبي يغازلك، وأنت لا ترددين سوى الأولاد... الأولاد.

أمي: أبي لم يكن يكرهني، كان دائماً يحاول وأنت كنت تنجبين حواجز أكثر، حين أتزوج يا أمي لن ألبس السواد وإن منحت أطفالاً سأعلمهم الحب، لن أخفي مشاعري أمامهم، سأقبل والدهم في حضورهم، سأحضنه ونحن أمام المدفأة، سأزرع قبلاً صغيرة على وجهه وأنا أحضر المائدة، وحين نحضر أطفالنا للنوم سيكون معي، يطوقني بذراعيه، أمي هل تسمعينني؟ لست وقحة.

- ماذا تفعلين الآن؟
- أكتب نصاً فاجراً في ذهني.
- وثقيه قبل أن يهرب منك.
- سأفعل...

الجدار يومض كل لحظة، كل رسالة تحمل وهجاً تهرب منه العتمة.

- ماذا تفعلين؟
- سافلة

أهز رأسي وأنهي ما بدأته.

لم ألاحظ أن الأسرة متشابهة، وأنا أرتب هزائمي وأضع شاهد القبر جانباً، ومضت ذاكرتي مجدداً، هناك في البعيد البعيد، يهمس لي «كوني جسداً أشتهي فيه ذاتي»، يمرر يده على بياض الصفحات فتصبح الرغبة لوناً كالحبر، همهمة المميدين تعيدني للمكان، في الطرف الآخر، سرير وعجوز ما زالت فحولته تشغله، كلما مر به طيف أنثوي يعري نظراته كي تبتلع تفاصيلها.

الهاتف يهتز بتواتر وإلحاح، مَن قد يتصل بي في هذا العالم الفارغ؟ وأفكر في تلك الصفحات، كيف تبدو بدوني، والعابرون لفصولها المتقلبة؟ هل لاحظوا غيابي؟

- أمي لا تكرهيني أكثر؛ كي لا أموت أكثر.

أبي الذي كان يسمع صمتي وينسج منه الأغنيات قد رحل، أبي الذي كان يعشقك، هو يعشقك بطريقته، تنفجر غاضبة وتصرخ بي:

- وقحة.

أيضاً أحبهم، كل بطريقتي، ولست وقحة، كم أشبه أبي! أحبني وأحبهم وأحب ربيعاً ابتكره كي يظلل حرائقي ووحدتي...

- أمي أنا أيضاً أحبك.

تغادرني وهي تهمهم، أستمر في التحديق بتلك الهالات الشاحبة على الجدار.

- سيطول هذا الليل.

الليل أوشك على الانتهاء، وثمة سفر سيرهق الدماء في العروق، ما أطول طريق الألم، ما أطول هذا السفر.

المكان على حاله، وأيضاً تلك الراكضة خلف وهم متجذر كألمها على حالها، نحيفة تتمايل في مشيتها، لا ألومها، هي مثلي يرهقها الوجع، وأنا مثلها لا أستوعب ألمي، فقط هي لا تكف عن النحيب، وأنا أعتمد الصمت.

سيظل المكان على حاله، بحضوري أو بغيابها، والظلام سيكتسح جدران غرفة تأوي أحلام طفولتي.

النوافذ مغلقة، والشمس خارجاً تعلن غزوها للظلال.

على مقام سبا

كلمات وحلم

جان بابيير / الغمسا

رأيتها تكوّر بيديها عجينة الفضيلة على شكل حكمة ناضجة، تفوح منها رائحة خبز طازج تخرج من جسدها الشهي الساخن، العرق المنساب من حرارة التنور يشكّل حبيبات احتجاج ورفض، فقط العرق اتّفاق وإرضاء لحرارة الجسد الثائر، ذلك الجسد الذي يؤدّي إشارات الرغبة المتورّدة هياماً.

كنت أراها تمسح يديها بقماش الرغبة المحرَّم وتكتب من الحبّ أحلاماً، لم تعد تهتم بأصوات طفولتها في باحة المدرسة، سقط (مريولها) خجلاً منها منكمشاً عليها، فقد بدا كاعبيها كرأسيّ قطتين تموآن بحليب الشهوة، ولم تعد تلوي عنق طفولتها على بائع (غزل البنات) على الرصيف بعد خطوة من المراهقة، وقبل نضج خبز جسدها، ترتدي ثوباً شفافاً إرضاء لنزواتها، صعدت السنوات سلم العمر بتأنٍ، وقدّمت عربون الحمية للجسد، سنواتها كفصول رواية تتوالى بخطٍ تصاعدي، ما أن تودّع حدث فصل تأتي حبكة أخرى لتكتمل ملامح قصّتها، المنعطف المحموم لرواية جسدها يعود إلى حقل ذاكرتها لتحصد منه موسم صبيحة ذلك اليوم، حينما اكتمل قمرها وبكى عين من بين فخذيها ببضع دموع حمراء، مثل حبر سال على بياض صفحة، يموت فيها الضوء الوهّاج ويرقد، يشتعل القنديل ثانية مع فتيل الخيال.

تنتفض لأحلامها وتستسلم كنرد يرمى على مائدتها تتدحرج بين الربح والخسارة في مقامرة الجسد وتحفيز الخيال، تلعب في زمنها الثائر, بتبادل الثنائيات في الأدوار تتشبث كقدسية بهالتها، كزانية بجلدها، وقت مرتبك جداً لاستمرارية الفوضى كما الانكسار والنهوض في كلّ التحوّلات التي تشهدها، تتقمّص مرة شخصية الصياد والطريدة، ومرة أخرى الكاتب والبطلة، لتعيش القصة كاملة، تسير في شوارع مدينتها كما تسير في سطور روايتها، تجر ظلّها خلفها كحصانٍ تجري خلفه عربة، تملك الآن هوية ملامحها وطريقٍ يقودها إلى حيثُ تبني جدران عالية للتمرّد على الوقتِ، تعود إلى مقصورات العمر وشوارع الذاكرة وأرصفتها المليئة بالأسرار، تفتح الصندوق، تزيل العرق من جبهتها بظاهر كفّها وتزيل الاحتمالات التي كانت هنا قبل الضياع، تهتم بالضبابِ الذي يسكن في الوادي أسفل سرّتها، تتصدّق على إصبعيها عابري سبيل لتكنس أخدود الرغبة هناك، الوسادة لحم لشخص آخر من نسج الخيال.

انقضى الاحتمال حطباً للنار، تغسل يديها بسائل يذهب لفراغ، تمكث الليل متيقظة بلذة المعصية من سبات أمنية التوبة الغارقة بالخطايا، وتلملم حاجات الصبح في حواف الروح، تنزع الدثّار كما غلاف كتابها، تقرأ جسدها بعيني أصابعها سطراً سطراً، وعورة تنكشف ثمرة عجراء هناك، ناضجة ببهاء هنا، تكتفي بالحبو وهي تحصي أسنانها المتبقية، بعد أن تكدّس اللون الأبيض في شعرها وتصطفي الخطوط والكلمات متشحة بالسواد على قافلة من المعاني القتيلة هي تعلم كيف نشبت أسنانها اللبنية في السطر الأول عند أول لقاء حبّ مع الحرف، وعانقت وجنتيّ الصفحة البيضاء بغيث حبرها، بعد طول عجاف جيئةً وذهاباً، وهي تسير على عكازها بخطوات متأنّية، بعد أن طهت المعاني على نار الصفحات من وجنتيّ الخيال ولحم كتف الواقع.

جابت بقاع الذاكرة، تشمّ رائحة امتزاج لحمها بتوابل الورق، كانت رواية اكتملت على تخوم تحمل ضريبة الزمكان تسأل عن عابر عيون من ولادة أخرى إلى موت آخر, ولدت بالحرف وكُفّنت بالغلاف كالموت رأيتها تهيل التراب على جثة المعنى.

بشير مسلم

بشير مسلم ، مواليد مدينة كوباني عام 1983م ، درس حتى المرحلة الابتدائية ، ولم يكمل تعليمه ، لعدم تسجيله في المدارس الإعدادية ، إذ كان مكتوم القيد لعام 1998م ، يعمل في الوقت الحالي في مجال التصميم ورسومات الأطفال لمدرسة خاصة ، لا يحبّذ عالم السياسة ، ولم ينتمِ لأيّ حزب سياسي ، متزوّج ، ولديه ثلاثة أطفال ، مقيم الآن في إقليم كوردستان ، في العاصمة هولير.

رسم أولى لوحاته التي كانت لها طابع خاصّ في مسيرته ، والتي كانت عبارة عن بورتريه لفتاة أحبّها أيام المراهقة ، كتعبير لها عن ذلك الحبّ ، فيما بعد قام برسم لوحات تشكيلية ، مع بداية الأوضاع في سوريا ، كان موضوع أو فكرة أول لوحة رسمها عبارة عن جنين في رحم الأم ، غير واضحة المعالم.

فنّان يطمح إلى الكثير في عالم الفنّ ، ابتدأ الرسم في ظروف خارجة عن إرادته ، لكن الحياة والعمل صرفاه عن متابعة مشواره بشكل خاص وأكاديمي ، حياته الحقيقية هي في مزج الألوان وتحويلها إلى لوحة تحمل حلماً أو تحكي حكاية ، وللحديث أكثر أجرت صحيفة "كوردستان" حواراً خاصاً معه ، لتسليط الضوء عن حياته وأعماله ونشاطاته.

هيئة التحرير: جان بابيير _ رشيد جمال _ إدريس سالم _ سربند حبيب